

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

---

# أوجاع الدمى

بدرية العبد الرحمن

الإخراج الفني :

نواف الشطيب

الطبعة الأولى

إصدارات | 2010 - 1431

ص . ب : 245430 الرياض 11312

المملكة العربية السعودية

ت / 2296754 - 2294873 تحويلة 110

الناشر



وهج الحياة للاتصالات  
Wahj Alhayat Communications

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

جميع حقوق النشر محفوظة ©

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب؛  
أو نقله في أي شكل أو وسيلة،  
سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية، بما في  
ذلك جميع أنواع تصوير  
المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو  
أنظمة الاسترجاع،  
دون إذن خطي من الناشر بذلك.

No part of this publication may be  
reproduced, stored in retrieval  
system, or transmitted,  
in any form or by any means, electronic,  
manual, mechanical, photocopying,  
recording, or otherwise  
without prior  
written permission of the publisher.

أوجاع الدمى



الرياض..

١٩-٠٩-٢٠٠٥

الفواطي..



# 1

صوت الحجر يشق سواد الليلة المختمر بغبار لا ينتهي ..  
وفي هدأة من خجل العراء ونشيش السيارات العابرة من بعيد ..  
يهوي الحجر بسرعة مرتبكة .. يعبط مزيداً من العلب ..  
تتكوم في ذيل كيس أسود بال في انتظار علب أكثر تضغطها لتساوي عشرين ريالاً ..  
- (اخلصي علينا يا بنت ...).  
يجاوبه صمت مبرقش بحفيف النفايات .. وقرقعة مزيد من القواطع تقذف باتجاهه،  
حيث يهوي حجره بلا توقف ..  
تقفز الصغيرة من النفايات وهي تركض باتجاه حجرها .. تعجن مع شقيقها بعين دامية ..  
الشيء الصغير في داخلها لا يكفي لأن يجعلها تفهم .. لم ينجل سوادها عن بياض  
أسنانها كل لحظة .. وهي تعزف بحنجرتها بصوت خافت شارة مسلسل تلفزيوني رأته  
ذات غفلة ..  
ترمق أهاها وهي تمص قطعة الحلوى البرتقالية .. مثلما يرمقها بعين السخط وقله الحيلة  
وهو بين القواطع .. فمستقر بين يديه والحجر .. ومستودع بين الحجر والكيس ..  
يتكئ على يدين مغبرتين وهو يمتخط ويصق ويزيح آثار الغبار على أنفه ..

وبين يديه ستون ريالاً هي قيمة ليلة كاملة من التنقيب والعجن .. وثلاثة أكياس مترعة بالصفائح المعبوطة ..

ما الذي يدور في عقله المراهق غير الستين ريالاً التي سيسلمها لعائل مغبرّ الأردن في بيت من الصفيح؟

هل ترى تملك الأحلام الجميلة أو القبيحة أن تعبر عقلاً مراهقاً نفخته روائح النفايات والتراب .. مثلما ملأت انبلاج فم شقيقته المتسخ القبيح؟

حيث تمددت بقايا البرتقالي على لثتها وأسنانها ..

التي لا تكف تنبلج كل لحظة ..

تعلن وجودها في ستار كل ما فيه أسود ..

وهكذا كان يسخر بها .. حينما يخنق وجودك عتم الليل فابتسمي .. وسأجد لك طريقاً عبر وميض أسنانك ..

مزّق سكون تفكيراته هتاف أجش غليظ ..

- يا ولد .. من هناك؟

يقفز ان .. بقعة كبيرة من النور تجري باتجاههما .. وخوذات تهتز فوق رؤوس متحفزة ..

يجريان .. يمسك يدها وهي لا تزال تبتسم وتركض معه ..

الخوف يلطع تفكيره كل مرة .. يلتفت باتجاهه أكياسه السوداء وهو يركض ..

يركض إلى أين ..؟ هو لا يدري ..

في كون يمتزج فيه الجوع بالخوف .. بألا يفهمك الناس ..

الأفضل لك ألا تدري ..

وهكذا انفلتت الصغيرة منه وصفق حفاء قدميها على القار النظيف يوحي بأن الأمن قد ابتعدوا ..

لا شيء سيسلبني ستين ريالاً ..

وبين مجموعات التشجير النظيفة أغلق فمه وعينه حتى يستر الليل منه ما أمكن ..



رآهم من بعيد يصوبون بنادقهم الساهرة باتجاه أكياسه..  
يفعل أحدهم شيئاً ما.. يضع شيئاً على أذنه.. يقول كلاماً..  
يدبّون حول الأكياس في تحفّز.. وحذر.. وشيء من خوفٍ قليل..  
يقترّب أحدهم ولو هلة بدأ أشجع القوم يحرك الكيس ببندقيته..  
أهه.. يطلق ضحكة عالية.. صوت قواطع!!

قواطع؟؟

يفتحونها..

تتعالى صوت الضحكات.. حقون القواطع.. حقون القواطع..  
يتسّم بين الشجيرات ساخراً.. يتلّع مذلته مع عرق تصبب باتجاه فمه..  
ثم يغلق فمه وعينه..  
لعل العيون الساهرة لا ترى من وميض أسنانه ما يفضح وجوده..  
يتعدون.. وهم يقهقهون..  
يعود أحدهم ليرفع كيساً وينفضه بعنف.. ثم يهرّ ما فيه في بطن النفايات..  
يفعل بالاثنين نفس الشيء..  
يركبون سياراتهم ويمضون..  
تنبلع ابتسامته أكثر وهو يركض باتجاه مقلب النفايات الكبير..  
يقفز داخله.. يسبح..

يغوص..

يغوص..

يقهقهه..

قواطع.. قواطع!!



الرياض..

٢٠٠٥ - ١١ - ٠٩

خشب العفل..



## 2

دارت عيناها مرة أخرى بذات الدهول منذ ألف وخمسة مئة ثانية..  
هناك، حيث طفلة بجوارها تتلمظ في انتظار حلمة .  
وجه أمها المتخشب بالارتياح .. لا ينفك يغرّس في عينيها المذهولتين للمرة الألف بعد  
الألف ..

لا شيء أفسى من الانتهاء ..  
حقاً لا شيء أفسى !

\*\*\*

كانت رحلتها لسنغافورة حديث الحاسدين والمحبين معاً ..  
وأصحاب العيون وأصحاب القلوب والألسنة معاً ..  
كانت قد خرجت من ولادتها لابنتها عروساً جديدة بقوام ممشوق صقيل لم تزده الولادة  
إلا تورداً ..

مثل التفاحة .. هكذا كان يقول وهو يقضمها بلا هوادة ..  
بكل شيء فيه سلب عقلها وفرّ ابتسامة سعادتها إلى حيث لا حدود للسعادة.

لم يتطلب الأمر أكثر من أيام حتى اكتشفت أن للسعادة حدوداً.  
كالأغلفة الجوية حين تخترقها الأجرام السماوية باتجاه الأرض.  
فتحترق، وتموت!

\*\*\*

لم تكن تحير جواباً وهي ترقد فوق فراش الذهول.  
حين وصلت ورقة الطلاق غير المفهوم بعد سنتين من السعادة المسرفة.. كان الأمر أكبر  
من أن تتحدث فيه.  
أو أن تجري فيه بعض المباحثات.  
كان في عقلها كل شيء ليس مفهوماً، كل شيء لم يعد مفهوماً.  
ولا حتى تلك المواءات التي تطلقها الصغيرة بجوارها.  
ولا الأصوات التي تنطلق من الشفاة المستديرة التي تتحرك وتتحرك بلا توقف حولها.

\*\*\*

«الله يلوم اللي يلومها»  
وتتكوم الدعاوى الفاتحة الألم باتجاه السماء.. أن يرسل الله عليه ما يمكن أن يكفر خطيئته  
بحق عقل عاشقة.  
استعد أبوها أن يرقع تحت قدميه ليعود إليها  
فقط ليعود عقلها.  
ولأنه يدرك فداحة فاحشته لم يكن ثمة خط للرجوع.  
هناك من الخطايا ما لا يمكن التوبة منه.  
وهناك مما ينكسر ما لا يمكن إصلاحه.  
وهناك من الأخطاء ما لا يمكنك أن تفهمه.  
وأقسى الأخطاء لعمر الله.

هي تلك التي لا نفهمها.

\*\*\*

سنتان ونصف.. تمضيان في سرير الذهول..

العينان هما العينان..

والدوران هو الدوران.

والطفلة تتلمظ هي نفس الطفلة..

وجه الأم المتخشب هو نفسه.

يقترح أحدهم أن يغير هذا البئس بصدمة عصبية أخرى.

فلنقل إن ابنتك قد صدمتها سيارة.

إما أن تخرج من عنكبوتها..

أو أن تموت..

الأب يرفض ذلك.. لا شيء سيرد قضاء الله..

يريدون أن يردوا لها عقلها..

يريدون أن تعود..

كيف تعود؟!

ومن قبل قالوا إن الحبيب للعاشقة خشير العقل..

فإن ذهب ذاك

فأنى يبقى العقل؟!

\*\*\*

نسيت أن أخبركم أن هذه القصة روتها لي جارتنا (عن) قريبة من قريباتها.

\*\*\*

ونقول جارتنا إن الفتاة ماتت بعد سبع سنين .

هذا ما تقوله .

\*\*\*\*

خشير: نجدية دارجة تعني (شريك) .. يقال في المثل: من خشرت برجلها خشرت بعقلها .. أي من

شوركت في رجلها شوركت في عقلها ..



برایتون

٢٠٠٧-٠٥-٠٨

الصفحة..



### 3

(قصة البطة الحقيقية)

أبتسم .. الآن .. نعم ..

أنا .. أبتسم ..

السماء بيضاء .. كل شيء يتوقف في هدوء .. كما تمنيت له أن يفعل منذ عرفت نفسي ..

في روعي لذة الرضا .. وطعم الاخضرار يفني من روعي وإليها ..

وإن كان يئز فيها كثير من رعشة الألم .. ألم انتهى ..

لقد متُّ .. توقفت حياتي قبل قليل ..

هاجرت روعي إلى حيث الرحمن الرحيم ..

وكنت قبلها .. فوق الأرض أعني ..

كنت فيها أدعى .. صالحة !

\*\*\*\*

ساقى بأكملها هي التي تؤلني هذه المرة .. كما لم أتألم من قبل .. وكما لم أضرب من

قبل .. ضربتني وألمتني .. ومنذ أكثر من ثلاث ساعات وفخذي وساقني لم يبارحها  
المها ..

عرفت نفسي أتألم منذ ميلاد ذكري الأولى فوق هذه الجبال ..  
كان يفترض أن تكون أخت أُمِّي .. خالتي .. كافلة اليتيمة التي يحسدها الناس على  
الد (أجر) العظيم الذي تحصده كل يوم أمضيه في عشاها المزدهم بعشرة أطفال  
يكبرونني ويصغرونني ..

لم يعرفني أحد فوق الجبال وداخل العش الكثيب غير طفلة تنوء بالدعر ..  
عينان مرتعشتان ذاهلتان كل لحظة .. في انتظار نهرة غليظة من أحدهم .. أو زعقة  
مبحوحة من إحداهن ..

أعرف أن كثيراً من الأفاصيص تصلح أن يكون مكانها مسلسلات التلفاز أو منتديات  
الإنترنت (التي عرفتها قبل أن أرحل) .

لكن قصتي كان مكانها الحياة .. هذه الأرض التي عليها تمشون وتنفسون الآن ..  
كنت فيها ذات يوم .. وكنت تلکم التي تكس الأرض بمقشة اليد الأطول من قامتي  
الضئيلة المختبئة في قميص أزرق طويل يكحت الغبار ..  
ليتشكل على حافته خريطة طويلة ممتدة يسليني النظر إليها وقت الفراغ .. حين تغادر  
خالتي البيت أعني ..

هي لم تكن سيئة أو شيطانة كما قد يخيل لكم .. هي هكذا .. كلما انفجر بارودها كل  
مرة في وجه زوجها أو الدلالة أو الخالات (كما كنت أشهد بنفسي ..)  
الكل كان يردد .. هي هكذا .. خلقت هكذا ..

صقرة .. حارة .. دمها حار .. تحب النظافة .. تحب الفخر .. تحب المدح .. تنتفخ أطراف  
أنفها الحاد بشكل يجعلني أزدرد لعابي الجاف حين تسمع كلمة امتداح ما ..  
ومن ثم يغلي دمها لمزيد من الأمجاد .. أكثر من كافلة اليتيمة ..

لم يكن لديها وقت لتنظر حتى في وجهي فيما بعد .. حين أصبحت (امرأة بعدما بلغت

الثامنة..

قيل لي إنها حينما أصبحت كافلة يتيمة بعدما توفت أُمِّي وأنا أخطو في سنتي الثانية..  
كانت رغبتي في الدعوات الحارّة لها تزداد كل مرة تغرس مشطها الأسود في شعري  
(الأكرت) الجاف.. تمزقه شداً وترتيباً حتى لا تكاد تنطلق منه شعرة..

تواسيها الخالات بأن تتبّه لبطنها المتكور أكثر مما تفعله وتبذله لبنت كبيرة مثلي..  
أرفقي بنفسك يا عزة.. البنت كبيرة..

في حين تلفت إليّ بفتحات أنفها المنتفخة نشوة.. كما تفعل حين تنتشي دوماً..  
تربت على ظهري الذي دقته بقبضتها المكورة قبل مجيئهن حين حاولت تخفيف شد  
البكلة الذي مزّق مقدمة شعري..

لا يدوم إلا وجه ربك.. أجرك عظيم يا عزة.. الله الله في اليتيمة يا عزة..  
تكبر وتساعدك إن شاء الله يا عزة..

الحق أنها لم تنتظر حتى أكبر حين وعيت نفسي..  
وجدتني كما أراذتني وأراذني الكل.. (مرة) قبل أواني.. قبل حتى أن أخطو باتجاه  
السادسة..

هكذا الحياة..

أهل الدنيا.. الذين تأتيمهم الدنيا كما يريدون.. لا يفهمون منها كما نفهم.. يفهمون  
منها ما يأتيمهم.. لأن ما يأتيمهم يجيء برغبتهم..  
أما أنا.. والذين مثلي يختبئون في شقوق الحياة..  
يرقبون.. بعين واحدة واجفة..

يهب علينا منها ما نريد وما لا نريد..

يلغنا من الآلام ما يجعلنا نفهم.. ولو بالقوة..

وصدقني.. لا شيء يجعلك تفهم كالألم..

حينها نفهم.. ونعي أنفسنا وقد أصبحنا نعرف من الحياة ما يجعلنا نخافها..

نفهمها جيداً حتى نخافها.. نخاف منها..  
 ننزوي في ثناياها.. نترقب.. نرفع رؤوسنا للسماء..  
 وقلوبنا تخفق بالانتظار لما لا نريده أن يجيء..  
 كصرخة خالتي مثلاً.. كخيزرانة زوجها حين تنهال على الأطفال جميعاً.. ومن بينهم  
 أنا..

التي فعلت دائماً كل شيء.. رغم أنها في المطبخ دائماً..  
 مع ذلك فهي التي سكبت إبريق الشاي في مجلس الرجال..  
 وهي التي كسرت لمبة الحوش بالكرة.. وهي التي ردت على الهاتف..  
 صالحة.. هي من يفعل كل شيء دائماً.. وهي من ينالها الألم.. قبل حتى أن تستعد  
 له..

قبل حتى أن تستطيع أن تحمي رأسها المهوش بذراعيها النحيلتين..  
 كل شيء أتاني قبل أن أستعد له..  
 بدأت أعمل في المطبخ.. أغسل الأواني فوق قوطي النيدو..  
 وأكنس الحوش وأرشه وأسقي الريحان والنعناع قبل أن تأتي الخلات..  
 كل هذا كنت أفعله قبل أن تكبر يداي بشكل يجعلني أصل للبزبوز.. أو أمسك  
 الليفة.. قبل أواني أعني..  
 وقبل أن أدخل المدرسة.. كنت قد بدأت أعد الشاي للرجال.. وأكثر منه.. فطور  
 إخواني وأبناء خالتي.. قبل أن يذهبوا إلى المدرسة..  
 وبالحديث عن المدرسة.. فقد دخلتها في التاسعة أو العاشرة ربما..  
 ليس لأن خالتي كانت وقتها نفساء بثالث أطفالها.. ولا لأن بيتها كان مزدحماً بالنساء  
 اللاتي كنت أخدمهن وأصب لهن الشاي..

لكن لأن حجمي الضئيل سيجعل زميلاتي يضربنني ويأخذن فسحتي كما يضربني  
 أولاد خالتي، ويأخذون البسكوت الذي تعطيني إياه خالتي حين أمسح المطبخ بشكل

جيد..

يا الله.. أهني دنيا.. وأمضيتها في مطبخ أهلي (كما كنت أدعوهم).. وكبرت مع طاولات المطبخ الحجرية القديمة..  
ألعب بالأطباق الغضار المتسخة.. أتسلّى بصوت خشخشة الليفة الخشنة على أطرافها المسوّدة..

في حين أن بنات خالتي يلهون بالعرائس الجديدة.. لم يكن لدي عرائس..  
خالتي عزّة تكرر كل مرة أنني (امرأة).. وأن علي أن أتعلم الطبخ والكد كي أكون (صقيرة)..

حتى تحبني نساء الحارة.. ومن ثم تعجب بي أمهات الأولاد.. وتخطبني لأبنائهن  
حين يذفن طعم الرظيفة والمشغوثة التي سأتعلمها السنة القادمة.. كما قررت خالتي..  
عزّة.. ذات الأجر العظيم..

العرائس كانت عالمي السحري الذي قلت مراراً إنني حين أدخل الجنة.. سأتحسس..  
وسيكون لدي مملكة منهن..

حيث قالت لي خالتي إن عليّ ألا يكون لي عرائس.. وأن العرائس للصغيرات اللاتي  
لم يتعلمن بعد كيفية رعاية الطفل..

أما أنا فقد تعلمت رعاية الصغير (علي) منذ أيام.. الابن الثالث لخالتي.. والذي كنت  
أحضّر له حليبيه ولم أبلغ الخامسة بعد..

خبأت حلم العرائس في وسادتي وتحت (دوشقي)..

أعواداً كنت ألقها بالخرق.. أخبئها عن خالتي.. وحين يئست أن تصبح لها عين تنفتح  
وتغلق.. أو أن تصبح لها خدود وردية..

رميت بها..

مرة كنت أقول لخالتي وردة.. ذات ضحى.. هل في الجنة عرايس؟

ابتسمت وهي تصمت طويلاً.. قبل أن تجمد دمي في عروقي (ودم خالتي وردة أيضاً)

نظرة من خالتي عزة وهي تضبطني أتحديث مع إحدى الخالات ..  
 قفزت من على الحنبل ركضاً إلى المطبخ .. وأنا أسمع خالتي وردة تبحث بجملته مرتبكة  
 عما يجعلها تبعد الشك بأنني قد سرّبت سرّاً أو اشتكيت ضرباً أو قلت ما لا يذاع .. أو  
 شيئاً مما يمكن أن يفسد الأجر العظيم ..

تسألني عن الجنة .. تقول: ماذا يوجد في الجنة؟ هي صالحة .. وستكون صالحة .. ياذن  
 الله!

مرة تجرأت وتسللت لغرفة البنات لأرى كيف تفتح العروسة عينيها حين تقف .. وتغلق  
 حين تنقلب .. كيف تفعل ذلك؟

انسابت روعي داخل عيني العروسة الزرقاوين .. تنظران إليّ .. بشفتين باردتين  
 وريدتين .. تحسستهما .. وتخلتني أطيّر بها إلى حيث السحابة البيضاء التي أراها كل  
 يوم في حوش الدار حين أستلقي على الحنبل ..

هذه العروسة ستكون ملكي .. وبنتي .. سأسميها عبير .. كما هو اسم بنت جيراننا  
 المدللة .. والجميلة .. ذات الشعر المشوط والمجدول دائماً ..  
 والتي لا يوجد في أصابعها سواد .. ولا حول شفثتها سواد .. ولا فوق رأسها عكاريش  
 ملتفة مشهّبة بالغبار فوق الغبار ..

سأخيط لعبير فستاناً جميلاً صغيراً .. سأطلب من الخالة عاتشة الخياطة أن تفعل ذلك ..  
 إنها أطيب من أن ترفض لي طلباً كهذا الطلب .. سأقول لها ألا تخبر خالتي عزة؛ حتى  
 لا تضربني هذه الأخيرة وتتهمني بالشحاذة من الجيران .. وسأخبئها جيداً حتى لا  
 يأخذوها مني ..

والمشكلة أن أحلام الأطفال أطول من أن تقصها الأيام .. ولكن أيدي الكبار يمكنها أن  
 تقطع أحلامي القصيرة .. التي استرقت من أجل أن أستغرق فيها جزءاً من وقت غسل  
 الأواني ..

كان كثيراً علي أن أكون طفلة ولو لشوانٍ أنهتها يد خالتي ذات الأصابع الطويلة ..



والحواجب المعقوفة ..

كلماتها اللاهثة بغضب قهر اليتيم .. ونشوة الانتصار على الأجساد الضعيفة المرتجفة وهي تتوسل بأنها آخر مرة ..

ولعمر الله .. إنه لليتيم وحده من لا يملك حتى أن يبكي حين يوجس طعم الظلم ..

لم تكن أول مرة تضربني فيها خالتي بالخطبة .. نعم .. الخطبة .. تلكم التي نستخدمها بعدما نقطعها نصفين لنشعلها ونطبخ عليها الأكل ..

لكن ما حصل اليوم كان أوجع .. وأعظم ..

وأعني به بالتحديد ما كان يفترض بي أن أفعل .. في عزومة خالتي عزة الشهرية، حيث هي هذه المرة صاحبة الضيفة ..

كان أنفها الدقيق محمر غضباً .. إن كل شيء في وجهها يشير إلى أن عليّ أن أكون صقرة وأكثر من صقرة ..

ولأجل ذلك سرقت .. لأجل نفسي دقائق مسّدت فيها شعري المهوَّش .. بقليل من

الدهن الأبيض أبو وردة .. وقميص نظيف .. وركض لم ينته بمجيء الحريم للعزومة الطويلة التي صنفنا أنا وأخواتي (بنات خالتي) صحنون الفاكهة ..

نهرتني خالتي أن اذهبي للمطبخ واتركي صف الفاكهة للـ(صغار) اللاتي تصغرنني أكبرهن بسنة .. تعالي معي ..

ركضت خلفها وهي تشير إلى قدر الهريسة الكبير .. وداخله المعصا الضخم يغلي ويبربر ..

فتحات أنفها كانت ترتجف بشكل أرعبني وهي تعلّمني كيف أعصد الهريسة باستمرار كل دقيقتين ..

وتحرصني بقرصة قوية على ذراعي .. تبثها همّ عزومة لم تنم لأجلها عدة ليالٍ ..

وهكذا كانت خالتي عزّة .. كل شيء يكتنز في صدرها .. ينفضخ داخل ذراعيّ قرصات زرقاء ..

انفراج لا مثيل له ..

وحينما ركضت الـ(صقرة) باتجاه من استقبلتهن بألاف من المراحب ..

ارتجت طويلاً أمام القدر العظيم الذي يفوح بخاراً لذيد الرائحة ..

طالما كرهت هذا المشهد .. وخفت منه في التلفزيون .. أن يتصاعد البخار .. ويوحى

بوجود حرارة ..

وحين يطير رذاذ الهريسة ليلسع ذراعي .. يوجعني ذلك أكثر .. وأنا أضطر أن أتحمل

كل ذلك حتى لا أهرّ القدر فوق الـ(قز) الصغير ذي السيقان المتخلخلة ..

عصدت بما فيه الكفاية .. وأوجعتني كتفي أكثر وأنا أحاول أن أسترق نظرة من خلف

باب المطبخ ..

لبنات خالتي يركضن مع إيمان بنت الجيران .. باتجاه غرفتهن ذات العرائس ..

شيء حارق تسلل إلى قلبي .. وجعل دمعة تسارع بالانجاس داخل عيني ..

في لحظتها دخلت أم أحمد .. جارتنا .. لتغسل رضاعة طفلها ..

وقفت طويلاً تتأمل قامتي .. وماذا أفعل بجوار قدر الهريسة !!

صرخت في: يا بنت .. (روحي بعدي عن الحار) ..

وسحبت المعصاة من يدي وهي تنهرني لأخرج من المطبخ ..

(روحي العبي مع البنات يا لله .. يا لله ..) !!

لوهلة وقفت .. ترددت طويلاً .. وهي تهشني بيدها وتسلت بالأخرى معصاة

الهريسة ..

قلبي الصغير كان يحترق لمراى عروسة .. ركضت لغرفة البنات .. فتحت البنات ..

فتحت الباب بعنف الرغبة ..

وشيء كرهه في عوينات بنات خالتي وهن يمسكن بإيمان ويسررن في أذنها كلاماً

خفياً ..

تكوّمت في طرف الغرفة أرمقهن محتببة شادة حافة قميصي حول ساقي ..

لطالما أحببت أن أجلس في أوقات فراغي .. أرمق بنات خالتي يلعن أطفالتهن  
الورديات .. ويتعلمن كيفية رعاية الصغير .. ويمسكن برضاعة بلاستيكية بيضاء ..  
ويرضعن الطفلات ذوات الأعين التي تفتح وتغلق ..  
كانت متعة حياتي أن أبقى أرمق ..  
لم أفكر لحظة أن أطلب أو أتمنى أكثر من أن أرمق ..  
عند حدود كحدودي الحمراء .. يصبح لا شيء أجمل من الأحلام ..  
لا تريد لها أن تتحقق إذ لو تحققت .. انتهت لذة الحلم ..  
عند هذا الحد تعالت أصوات النساء .. عالية متداخلة توحى بمصيبة .. بشيء حصل ..  
صوت طفل يبكي عالياً .. يصرخ من الألم ..  
لأول مرة لا أسمع صوت صفق رجلي على بلاط الدرج .. وأنا أركض لأرى ما  
حصل ..

خالتي عزة تحمل طفلاً لإحدى النساء وهي تصرخ في ذهول لا واع:  
(صالحه .. جيبى الموية يا قبيحة)!!  
كان الطفل يرفس من ألم ما انسكب على ساقيه الصغيرتين من قدر الهريسة .. كانت  
النساء يخلعن ثيابه ..

مر وقت طويل ليخمد صراخ الطفل بعدد خطوات أمه خارج الدار ..  
حين ألقت إليّ خالتي بنظرها الطويلة .. تسرّب شيء حار ساخن داخل ثيابي ..  
هرعت لأجله إلى سطح الدار .. أرقب الشمس التي صارت بغیضة كريهة لا تريد أن  
تروح ..

دموعي تستدر عطف الدقائق .. أرفع يدي إلى الله ..  
أخلع ما تبلل من ثيابي ..  
حين قاربت الشمس على الغروب .. وحين نفدت دموع خوفاً .. وجفف الانتظار  
جوفي ..

وجدتني أرفع رأسي أخيراً لأرى عينيها الحمراوين .. فتحنتا أنفها الدقيق تكاد تتمزقان ..  
 حاجباها يبدوان صامتين يختزنان ما هو أشبع من إبليس ..  
 كانت بيدها حطبة عريضة .. كبيرة .. هوت بها على جسدي في صمت الجبارين ..  
 قهر الصقرة .. حين تكسر صقارتها الأشياء الصغيرة أمثالي ..  
 هوت بها على رأسي .. على يدي .. ذراعي .. وفوق فخذي ..  
 لم أشعر إلا بأصابع رجلي تنمّل حين بدأت الحطبة تتكسر علي ساقِي ..  
 أحمي بيدي ساقِي .. وثم أحمي يدي بساقِي ..  
 أحمي رأسي بذراعي .. وثم تهوي الحطبة عليها فأسحب ذراعي أنفضها الماء ..  
 ذلك الألم الذي يجعلني أقفز من مكاني أحاول أن أمسك يدها ..  
 - والله يا خاله .. والله يا خال .. آخر مرة .. خالتي أم أحمد .. والله آخر .. آآآآآي ..  
 كل ضربة كانت تودعها كبرياء الصقرة ..  
 كحنت الحطبة من بشرة ساقِي وذراعي المكشوفين المغبرّتين .. ما حاولت أن أحكه ..  
 أبرده ..  
 سحبتني من جديلتي اليمني للأسفل .. وبامتداد الدرج كانت تودعني ضربة أو ضربتين  
 فيها نفثة مصدور ..  
 لم يكن هذا كل شيء .. فقد سحبتني للمطبخ ..  
 إلى حيث القدر المسكوب الذي مسحت الخالات جزءاً مما على الأرض الترابية ..  
 وتركن القدر الكبير قد جفت على أطرافه بقايا الهريس الذي التهمته ..  
 كانت طوال الوقت تضرب بهدوء .. بصمت .. لم تنبس ببنت شفة .. لم تتكلم ..  
 وجدتها تسحبني من جديلتي إلى حيث الموقد .. وكان فوقه إبريق شاي ..  
 بعين واحدة لمحت البنات يتجمعن على باب المطبخ .. بكت الصغيرة ذعراً وذهولاً ..  
 وشاركتها الأخباريات بعد .. لم تكن المرة الأولى التي أضرب فيها أمامهن .. ولكن هذه  
 المرة كانت أمهن تبدو شيطانة حتى بالنسبة لهن ..

لعنتهن الأم بأن يذهبن لغرفتهن ويغلقن الباب ..  
لم تكف الصغيرة عن البكاء حتى حملتها أختها الكبرى وهربتا بعيداً ..  
كانت لحظتها قد أحمت ملعقة على نار الموقد ..  
كانت تريد أن تؤلني أكثر .. لكي أفهم ..  
تذكر .. لا شيء يجعلك تفهم جيداً .. مثل الألم ..  
ألم الذعر .. الدهول .. الخزي وبلل ملابسي حول ساقي الباردتين .. وصفير حلقي  
المتلى بلغمًا جافاً ممزوجاً بغبار السطح والخطبة ..  
ألم لهيب الملعقة يتقاذف فوق كفي الصغيرتين تدافعان وتطوّحان في الهواء بعيداً .. لا  
يا خالة .. لا خالة .. عه .. عياااه .. عيااااه ..

\*\*\* \*\*

عزة تبلغ الخامسة والسبعين الآن .. تستعد لترقص في حفلة حفيدتها التي ستتزوج  
أحد مليارديرات القوم ..  
وما زالت رغم كل شيء .. حين تراني في الحفلات .. تهتف لي: يا مرحبا ببتتي .. يا  
مرحبا ألف ..  
وما زال الناس يسمونها بكافلة اليتيمة .. ويتحدثون عن كيف ربّت الصقرة التي  
تزوجت في سن الثالثة عشرة .. التي تبيّض وجه زوجها .. وتكرم ضيفها ..  
وتحسن الرضيعة .. والمشغوثة .. والهريسة .. والعريكة ..  
حتى أصابتها العين .. واشتعل المرض الخبيث في جسدها الضئيل ..  
ما زال كل ذلك بفضل عزة .. ذات الأجر العظيم .. الله يطوّل عمرها ويزيدها إيماناً ..  
وما زالت حين تسمع كل هذا تنتفخ فتحتاً أنفها الدقيق .. حتى تكادا تنفجان كجناحي  
فراشة ..  
الآن أنا أبلغ الخامسة والأربعين .. آلام الورم السرطاني تقول إنني لن أعيش طويلاً ..  
دعوت الله تعالى أن يشفيني لكي لا تذوق بناتي الأربع مرارة ما ذقته ..

لكن لكل شيء حكمة ..  
الآن أنا أودّع الحياة .. كما ودّعها زوجي قبل خمس سنوات ..  
المصائب عسير .. والوعد جنات النعيم ..  
(الله الله في خواتك يا عبير ...).

\*\*\*\*

صلوات الله وسلامه على روحك يا صالحة ..  
يا من كنتِ تعملين وحدك .. تضربين وحدك ..  
تموتين وحدك ..  
وتكتبين ألامك بصمت الأيتام ..  
سامحيني .. حلليني أيتها .. الصالحة ..  
إن أذنت لأحرفي أن تنسج حرارة الملك ..  
وجعلتها تلف حزن الأطفال .. وأحلام الحوريات .. وتغزله في مصنع القصص ..  
مدّي يدك من داخل قبرك البارد كفراش شتائك الذي وصفته قاسياً ممزقاً .. مشقوقاً من  
المنتصف .. مبقعاً بالدموع ..  
محمشواً بتأوهات البرد وأوجاع اللسعات ..  
اسقيني الماء .. حدثيني الماء .. قول لي الماء .. أروي لي الماء يا صالحة ..  
اجعليني أكونك لحظة .. حتى أفهم ..  
لأجل قبرك الطاهر سأسجد طويلاً .. سأدعو الرحمن الرحيم .. ليس أن يرحمك ..  
سأدعوه أن يرحمنا نحن .. أن يجعلنا نفهم .. أن يجعلنا نتقن وجع المتألمين .. بدلاً من  
رصف الحروف ..  
أن يجعلنا نعي صلادة الكهوف .. وحرشة الحطب .. بدلاً من ريش النعام ..  
بدلاً من نعومة القطن .. وروائح الأزهار .. ودفء الاحتضان ..  
بدلاً من كل مفاتن الدنيا .. التي نرتمس فيها حتى حين ..

تلك التي إذا أعطت أعطت ..  
وإذا داست داست ..  
على روحك الطاهرة ألف صلاة .. ألف ألف صلاة ..  
آلاف الصلوات بقدر ما تأوهت ..  
عدد ما تأملت ..  
عدد ما ذعرت .. عدد ما خاف جسدك الضئيل ..  
عدد ما استضعفك كافلوا الأيتام ..  
وعدد ما استكثروا في يدك العرائس ..  
وعلى عقلك الأحلام ..  
عليك صلاة .. صلاة تغمرك حتى تشهق روحك الخضراء سعادة ..  
حتى تسكر حلماً .. حتى تبعث بياضاً .. نوراً لا ينتهي ..





برایتون

۲۰۰۷-۰۶-۱۰

نقدکم علماً!



## 4

- هذه لا تصلح.. أتريدين أن تقولي له.. يعني للوزير.. (عليك أن تعرف يا هذا)..؟  
- من علمك كتابة المعارض؟

تعلك أمل لبانتها وتنفت في وجهي رائحة المستكة والحسرة..

من علمك أن تكتبي هذه الكلمات القرميدية.. قال نفيدكم.. علماً.. قال!

القلم يرقص.. أصابعي ترقصه لهفة.. انتظاراً.. خوفاً.. أملاً لا أمل منه..

لكم أخبرت نفسي في ليالي الفواتير مؤجلة الدفع.. والإنذار النهائي بفصل التيار..

ومكالمات المؤجر المذكرة بحلول الإيجار.. لكم أخبرت نفسي أن عمر الأمل قصير..

وأن الأيام هنا أعجز وأوهى من أن تحمل الأمل.. والحلم..

إن إدمان الأمل أمر ليس أسوأ من إدمان الهيروين.. مصيره كمصير المدمنين..

الأشقياء.. وأيتام الزمن.. في مستشفاه.. مستشفى يعالجون به الناس..

أو يعالجون الناس منه..

شطب (نفيدكم علماً) في الليل.. بعدما تفرغت لعربي المعارضي الليلي.. ولكن

جرى القلم شقياً أشهب منزوع السداة العلوية.. نفيدكم علماً..

هذه المرة توقفت أتأمل قلمي.. أبو نص.. أغوص في جوفه، حيث يختبئ لعابي..

وأزمنتني المطيرة الخضراء التي تقاسمتها مع إخوتي الثلاثة وأمي .. التي كانت تودع كل واحد منا قلمين .. أحمر وأزرق ..

ولطالما فخرت أمني بأنني أحافظ على أقلامي طوال السنة بخلاف إخوتي .. الذين ضاعت وما زالت تضيع أقلامهم .. وتنتفخ كروشهم ومحافظهم ..

بلغ ابني السابعة عشرة قبل سنة .. أنهى الثانوية التجارية قبل سنة .. واستخرج رخصة قيادة الهايلكس العرجاء أيضاً قبل سنة ..

سنة كاملة أفيدكم علماً أنني كنت أعدة للحياة .. أدفعه باتجاه الزمن يحمي ما تبقى مني من أكثر من سبع سنين .. حياة فردت لها ذراعي فوتير وإيجاراً وأكلاً ..

سبع سنين مدة صمودي في عاصوف الحياة .. ولا أحد منكم يعرف أو يستفيد علماً .. أن ترعش الصفحة في يدي المعروقتين لهفة وترقباً وحماساً وأملاً .. لم يعد أمراً غير مألوف .. فأنا أتق .. وأمل .. ولدي قدرة غير عادية على الأمل ..

أتق بقيادتنا الرشيدة .. والحكومة ما قصرت .. وروحنا فداء لهذا الوطن .. وأملي بالله ثم بكم يا أصحاب القلوب الرحيمة ..

وكل ليلة أنتهي فيها باكراً من إعداد المعمول .. مصدر رزقي شبه الوحيد باستثناء صدقات أهل الخير وجمعية البر ..

ومن ثم أستلقي على سريري الخاوي الرمادي منذ هجره زوجي قبل أن تصيبه العين وتسحره المغربية ..

لحظتها أحتضن قلبي الأبونص .. لم أكن أعرف أنه يملك قلباً لا يملكه أشقائي المتكبرشون ولا زوجي الخائب .. ولا حتى ابني الذي أرهقه الشباب المسحول بفورة الطاقات ونسيان الأيام للضعفاء والمساكين ..

- يا الله إنك ترحم ضعفي وضعف وليدي .. يا الله إنك ترزقه بوظيفة ..

على قلبي الأشهب آثار أسناني .. حين يأخذني الحماس إلى استجداءات بارعة لم يعد يجيدها إلا أمثالي ..

- ولما سمّوكم الكريم ..
- وطمعاً في عطف سموكم الكريم ..
- وقد سمعنا عن مواقفكم الإنسانية ..
- ولذلك أرفع أكف الضراعة راجية أن تفكوا كربتي ..
- وليس هذا بغريب على أياديكم البيضاء ..
- أكثر ما جادت به كلماتي المبتكرة كان عشرة آلاف ريال، سددت منها إيجار ستة أشهر ..
- ورفعت الباقي لزم من شات يعرف كيف يكفهر ويلسع ويوجع حين يلسع ..
- ويعرف كيف يبكيك جيداً .. ولو تجلّدت له ما تجلّدت ..
- مير إن ربك كريم يا فطيمة .. من رجاه ما خيبه ..
- هذه أم محمد .. تواسيني على الهاتف حين توغل لساعات الأيام ..
- أم محمد قسيمة الأمل .. والألم .. والحلم .. وبطلة أرقام الخطابات .. والمسوّقات
- لمعمولي اللذيذ ..
- كنا أربعاً من الحریم .. متسعاً الأفواه .. ذابلات الفتيل ..
- جمعتنا صدقات المحسنين وراتب الشؤون الاجتماعية .. وجيرة طويلة في (الشفنا) ..
- يزيدنا شتاء النسيان رهقاً ..
- يرتق بعضنا ضعف بعض بالدعوات .. والوعود .. والأمنيات التي لن تنتهي ..
- الحياة التي سنقطع رصيفها شتناً أم أبينا ..
- يؤلّم النسيان ركبنا فندهنها بالفكس .. وتترُّ من اللهاث رئاتنا فندلكها بزيت الحبة
- السوداء ..
- وتلتهب دواخلنا أسمى وغضباً فنلهم الصك لك .. والمرّة ..
- وربما استشمت جراحنا بعد هبة عطر يستنكرها حداد أرواحنا الدائم فهرعنا نشم
- الحلتيّة ..
- يُذكر لنا شيخٌ شاطرٌ في علاج العين التي تنهشنا من دون خلق الله ..

وحسبي الله على من طالنا شره ..  
نهرع للشيخ أسبوعاً ثم لا نشفى ..  
- ومن يريد الشفاء .. فليداوم على القراءة! ..  
هكذا كان يقول .. وهكذا كنا ندهن حيواتنا .. بابتساماتنا .. ونطوي على دواخلنا عظاماً  
هشة يعركها الزمن كما يجب ..  
آه يا دنيا الشقاء .. هكذا كانت تردد لطيفة .. أم الأولاد الخمسة ..  
تقولها .. فنبتسم .. ونكمل قرض الفصنص ورشف الشاي ..  
وإذ تهشّ أم محمد لسلمى المطلقة .. برقم عريس يختبئ في جوالها ..  
- مسيار .. ما نبيه يا أم محمد! ..  
حينها لا يوجد أمتع من صوت أم محمد حين تهزأ برميم الأوثثة في ثياب سلمى:  
- عساه يحصل لو مسيار!  
حيث كنت أصغرهن ال(مثقفة) منهن باعتباري أحمل الدرجة الأعلى بينهن .. فقد كنت  
موكلة بكتابة المعارض: وأنت يا فطيم عندك أسلوب ما شاء الله عليك!  
تسمع أم نواف أن إحداهن وجدت عملاً في أحد المصانع التي يملكها أحد الكبار ..  
- (أبيك تكتبين لي كلام حلو، تشرحين وضعي وحالتي أنا وهالبران اللي ما لهم  
والي ..)!  
كتبت لها ورقتين من أربعة أوجه .. وختمتها بدعوات استنزلت فيها رحمت الرحمن  
الرحيم على روحه وروح والديه وذريته .. أن ارحم هذه الروح الخائفة في دور أرضي  
عريق غير حصين في الشفا .. حيث تسكن أرواحنا الذابلة ..  
كتبت لكل دائرة حكومية يمكنك أن تسميها في الرياض .. أريد لابني وظيفة .. وكتبت  
لكل من تتخيله من أهل الخير وأهل القلوب الرحيمة أريد لبيتي إيجاراً .. ولفواتيري  
سداداً ..  
اليوم سأفلق كما لا أفلق كل يوم في كتابة معروضي ..

طقوسي التي أغازل بها قلمي الأشهب (كما أتعاطاه بعض الأحيان).. وهو يمتنع كعادته من الكتابة إلى أن يحتقن جرمه بأنفاسي ولعابي أدفع به ما تبقى من روحي للأسفل..  
- يا صاحب القلب الرحيم.. يا من نسمع عنه القصص التي تروي عن كرمه وجوده وشهامته ونخوته..

ولو علمت غيرها من المرادفات لكتبتها..

لا أحد منكم طبعاً سيفكر كم تنفخ كل واحدة منها الرأس وتحقنه بنشوة النخوة..  
تلك التي نستعطف زفرتها ونفرد أذرعنا بانتظار زفيرها وغبارها فارغ الصبر..

يا الله لا تقطع رجائنا.. يا الله إنك تسخر لنا أهل الخير..

- عندي ولد مراهق يبلغ من العمر ١٩ سنة.. شاب يتفجر حيوية وطاقة.. ولا يحمل إلا الثانوية التجارية.. تركنا زوجي وقد كان طفلاً صغيراً.. وشقيت في تربيته وتعليمه..!  
طالما كنت آخذ في القواعد ١٥.. وفي التعبير ١٤..

أرفع رأسي ككل مرة إلى امرأة خزانة ملابس..

أستطلع اللفظة التي تسكن وجهي ذي الآمال والأحلام والنشوة الخداعة..

أشاهد لهفة بنت الابتدائي في وجهي الكبير..

وحيث تهتز ساقاي بطفولية حل الواجب.. يسكنني فرح تعرفونه..

هو ذلك الذي بطعم التشهي.. والأضغاث الخضراء..

ذاك الذي لا يعرفه إلا الجائعون.. والمنسيون.. والذين لديهم العمر كله ليصنعوا من

أيامه بيوت ورق يثرثرون عنها..

يستكتمون أصدقاءهم إياها..

يحمونها من العين والسحر..

لتنهار حين تمطر أجراسُ الشقق فواتير وإيجارات..

- (يمه.. معك عشرين أعبي بنزين)؟





الرياض

يوليو.. ٢٠٠٧

أوجاع الدمى..



## 5

لقلب صديقتي .. حين يتشقق لهفة ..

\*\*\*\*

مخبوءة داخل صندوق الزجاج ..  
خلفها وأمامها شبيهاها وأجمل منها وأصغر وأثقل .. وقطع من الحلوى ..  
وأفراص من العلكة ..  
وأيام من السكون ..

\*\*\*\*

نعم والله توجعها الوحده .. وقلة الحبيب والرفيق ..  
وهواء الزجاج الخائق ..  
تتمنى فارساً صغيراً يلقطها باتجاه منزله ..  
يركنها جوار عرائسه .. حيث تتعرف على دمي أخرى .. ودباديب ..  
وربما قامت بمغامرات وأشياء تملأ زمانها الذي يشبه بعضه بعضاً ..  
ولكنها هنا منذ أحقاب طوال .. أعني حين يكون الأمس كالיום .. واليوم كالغد ..

حيث لا جديد غير الانتظار ..  
ولا طعم للثواني ولا للدقائق ..  
هكذا لو أصغيت إلى قلبها القماشي ..  
لشعرت بآلم صوتها يجر أمنية عميقة عمرها ربما عشرات الأيام من الدعوات بالفارس  
الصالح ..

تريده ينظر إليها ويتمناها كما تتمناه وتهف إليه ..  
كما تكتب له القصائد الطوال ..  
وتهف شوقاً كلما مرق من جوارها طرف شماغ أو خيال غترة ..  
تبث السماء أوجاعها وتبوح لها بأمانيتها ..  
وإذ يعيها مرُّ الانتظار لربما سمعت الدمى تبث بعضها بعضاً آهة ..  
أمنيات وتعازٍ .. دعوات طوال باحتراق ما بداخلها ..  
- إن شاء الله عقبالك هالمرة ..  
- متى ؟

بآلم الانتظارات كلها تجرّها  
تجاملها الأخرىات .. أنتِ ما شاء الله عليك حلوة ..!  
- الله يرزقن باللي يشوف حلالي ..!  
تقذفها بحرارة انتظار ممل دام ٢٩ عاماً ..  
داخل صندوق الزجاج ..

\*\*\*\*

أتى طفل جامح الرغبة هذا اليوم ..  
تقول الدمية لصديقتها ..!  
قذف قرشاً داخل آلة العرائس ..  
في فمه عود متسخ تقطر منه ألوان وسخة ..

كل العرائس صلّت أن تكون عروس اليوم ..  
كل العرائس هرعت .. وقفت ..  
من ثم حلمت أن يلفّها شريط أبيض وردي ..  
أن تنزلق داخل ممر ناعم باتجاه يدي الطفل ..  
أن يحضنها ولو بعنف تحت ذراعه ..  
إنها وإن كانت مخنقة تحت ضغط ذراعه فهي على الأقل تستنشق هواء مختلفاً ..  
عن هواء الزجاجاة المكرور والممل ..

- يارب .. !

تقولها الدمى ..

بصوت عالٍ يكاد يشقق جدران غرفة الانتظار ..

لا يسمعه الطفل ..

حتماً لا يسمعه ..

ولا ينبغي له أن يسمعه .. !

\*\*\*

تقطر من فمه اللاهث وساخة عسلية ..

تتضحك الدمى بشغف اللهفة ..

تبادل نظرات الأمل والغنج .. وتستلمح عبث الأطفال ..

وتستجدي عطف اللحظات ..

- إن شاء الله أنت هذه المرّة!

ذات التسعة والعشرين عاماً لم يتبق من صوفها ما يكفي لأن تشبث بذراع الالتقاط ..

هتفت من أعماق قلب أحرقتة الأمانى: الله كريم ..

يبتر الطفل عبثه الموجه وهو يحرك ذراع الحظ ..

تقطر من فمه وساخة أكثر .. يصيح بكلام غير مفهوم .. يرغب ..

ترتفع أصوات الدمى احتجاجاً وهي تراقبه يهرب بعيداً.. بعيداً..  
باتجاه صديق في عمر مماثل..!

\*\*\*\*

موجعة حياة تحنطك وتتركك تقبع في طابور انتظار طويل..  
تعبت بك الأحلام..  
تجعلك مسنوداً إلى قماشات مثلك..  
وتحت رحمة لحظات العبث والمرح.. يقع مصيرك..  
قد تلقطك أذرع الحظ.. فتدفع أكثر.. وتحاول أن تتشبث بذراع الحظ أكثر..  
تتذكر الدمى أنها لا تستطيع أن تتحرك.. أو تتشبث.. إلا في الأحلام وأفلام  
الكرتون..  
تنتظر قدرها.. تحتقن حزناً..  
تمشط شعرها..  
تطيل أظافرها وضمائرها..  
تتألق في كل مرة..  
تفرك بقع الأيام في وجوهها وأجسادها..  
تنتظر أملاً لا يموت.. لن يموت حتى تموت..  
يأتي طفل آخر..  
مراهق آخر..  
يدخل قرشاً..  
وتتهافت الدمى..  
وتتخيل الحلم نفسه كل مرة..  
وتزف كل واحدة منهن في أحلامها إلى ممر ناعم باتجاه أذرع خشنة وقاسية..  
محاولة.. محاولة..

تنزلق الدمى من ذراع الحظ مرة أخرى..  
تذوب حسرة.. تندب الحظ.. وثم تحزن..  
ثم.. لا شيء..!

\*\*\*\*





لندن

٢٨ سبتمبر - ٢٠٠٧

**الفبيحات!**



## 6

لم أر..  
لن أرى..  
لم يكن في حسبتي شيء من هذه ال(لن).. قبل أن أجدو هناك..  
وأرى نساء.. بكل ذلك القبح..!

\*\*\*

دقت ساعة زمن يقبع في غرفتها التي تفوح بروائح العناية المركزة..  
الديتول والأبيض.. والمفارش الزرقاء التي تذكرني بزمن معتم قضيته معها مرافقة في  
مستشفى حكومي..  
كانت الجلطة هذه المرة أقسى من سابقتها..  
وكان وقعها على دماغها الضعيف أشنع..  
تركتها هذه المرة بلا بقايا عقل.. ولا ذاكرة.. ولا حتى كراهية..  
أصبحت تحب الكل.. وهذا يدل على أنها حقاً مريضة..  
لا شيء سوى ابتسامة بيضاء بلا هوية ولا معنى..

ويد تمتد نحوي تطلب كل شيء في كل حين ..

- سلمى .. أعطني عيشة ..!

- سلمى .. وبين القبلة أصلي!

- سلمى .. الله أكبر .. سبحانك اللهم وبحمدك .. تبارك اسمك وتعالى جدك .. (لا

تنسين عشا أبوك... )!

أيام كثيرة طويتها .. ليل يطوي نهاراً .. ونهار يطوي ليلاً ..

أستعجل الأيام لتفنى .. ويفنى معها الألم ..

لكنها لا تفنى .. ولا يفنى الألم ..

يبدو أن من سيفنى هو أنا .. أو أمي .. أو كلانا قبل أن ينفد ألمه ..

\*\*\*\*

ليس لوالدتي أحد غيري ..

على الأقل .. أحد حقيقي ..

نعم .. وإن كانت والدتي قد أنتجت عائلة كبيرة بفروع وأغصان .. تمتد من ست بنات

متزوجات يصغرنني ..

وأربعة أولاد كبار .. ولدوا بعدي ..

فإن أحداً منهم لم يعد يتذكرها بعد جلطتها إلا بزيارة في الأسبوع .. حبة على رأس

أمي ..

ومبلغ من المال في يدي ..

ودعاء لي بالتوفيق والعوض في الآخرة .. على التضحية .. والأجر العظيم ..!

دقيقة واحدة من فضلكم ..

إنه موعد حبة الساعة الثامنة ..!

\*\*\*\*

تأكدت مئة مرة من نظافة وجه أُمي من بقايا الكحل ..  
لا أجمل من وجه أُمي في الوجود كله .. حين أطوّقه بالغدفة فوق شعر ممشوط محتّى ..  
مغمور بالعود والعطر ..  
حتى الشمس والقمر .. والنجوم وكل الكوائن الجميلة ..  
تخجل من بسمه أُمي . وانبلاج وجهها .. وصوتها المبحوح من حنجرة شُقت مراراً لأجل  
التنفس ..  
بفرحها الممل الذي لا مبرر له ..  
وصلواتها التي لا تنقطع ..  
لا أجمل من يديها المعروقتين الشاحبتين تمتدان إليّ .. تطلبان أكلاً .. بلا جدوى ..  
وحيث إن أُمي لا تستطيع البلع .. منذ سنتين ..  
فإن يديها تطوقانني بلهفة تضايقني كل مرة حين أقرب منها .. أتأكد من نظافة وجهها  
وثوبها ..  
تقبلني بلهفة وشغف يضايقني ويخيفني كل مرة ..  
كأن الجوع سيجعلها تأكلني لحظة ما ..  
أزمنة طويلة عاشتها أُمي تتأكد من نظافة عيني قبل الذهاب للمدرسة ..  
أزمنة طويلة عاشتها بين أناس لا تنفذ ..  
وزائرات يخطبن ودّ سوا ليفها المضحكة .. وحلاوة قلبها ..  
دقت ساعاتنا طويلاً بعد جلطتها ..  
ولم يكن هناك من يسلينا سوى الغبار .. والجرائد ..  
وراتب الشؤون الاجتماعية ..  
وبضع دقائق هاتف .. تستنبي على عجل .. تدعو بالتوفيق والعوض ..  
والشفاء ..  
ثم تغلق على الفراغ .. والصمت ..

\*\*\*\*

واليوم سيكون الوضع مختلفاً..  
 برّجت وجه والدتي كما يجب ..  
 كما كانت تفعل بأصبع الروح السحري على شفّتي وخدّي قبل خمس وثلاثين عاماً..  
 مضى من العد أحد عشر شهراً لم أخرج خلالها إلا للمستشفى ..  
 اليوم سنخرج ووالدتي .. وشقيقتي الصغرى ستأتي لتساعدني في دفع كرسيها  
 المتحرك ..  
 متنزه نسائي صغير .. توسّع صدرها ..  
 تنظر في الخضرة .. والمارة .. وتبتسم للكل ..

\*\*\*\*

كطفل يهتز في محبس بدت والدتي وهي تحرك يديها وتصيح بصوتها المبحوح في بهجة  
 الأماكن الخضراء ..  
 - سلمى .. وين القبلة أصلي ..!  
 وفرح غريب .. كفرحي ليلة يومي الأول  
 في المدرسة ..  
 وفرحتي ليلة نتائج التخرج ..  
 وفرحة ليلة دخلتي .. وليلة طلاقي ..  
 أعني .. فرح الليالي التي نحتّها ..  
 وتجعلنا شغوفين لأن تأتي صباحاتها ..  
 بكل ذلك الفرح كنت أدخل متنزه النساء ..  
 أدخل وتدخل معي نقابات وعباءات وبراقع .. أشكال بدت لي (بعد سنة من  
 الاحتجاب) غير مألوفة ..

يعجبني بعضها وأنكر بعضاً ..  
وأجعل البعض منها منكراً .. والآخر معروفاً .. وهلم نظراً ..  
نظراً ظننته لن يتوقف .. حتى أحسست بالإحراج ..  
أو قل حتى أحسست بحركة أُمي على الكرسي ..  
قفزت من مكاني ، حيث جلست على أحد الكراسي ..  
- وبين القبلة أصلي؟  
كشفت وجهها الزمردى لتسطع هالة من النور .. يمكنها أن توقف الزمان ..  
لو أن أحداً عرف من هذه .. أُمي أعني ..  
ربما لم ير أحد سطة النور غيري .. وإلا فكيف لا تتوقف هاته النسوان عن المشي  
والجري باتجاه الألعاب وخلف الأطفال؟  
استدنيت عباةتي فخلعتها .. وقفت لأستبين إن كانت شقيقتي قد جاءت أم لا ..  
كنت أتصور جوعاً .. ولن أتناول قهوتي حتى تأتي لـ (نفنجل سوا) ..  
- (يمه الحين موب وقت صلاة .. هشششش ..)!  
دفعت الكرسي .. وقد علقت على أحد مقبضيه سلة القهوة ..  
الناس هنا تعيش .. تعيش جيداً ..  
تدخل بعضهم ببرطمانات من الفطائر .. سندوتشات ..  
وحتى فاكهة ..  
ابتسمت طويلاً بامتداد أزمنة أُمي التي قضتها تهزأ بالـ (أجانب) وحرصهم على  
صحتهم ..  
واصطحبهم للتفاح والبرتقال والماء في النزاهات ..  
حيث كانت تأخذنا ..  
وتشتري لنا هناك ما لا تشتري في أيامنا العادية ..  
لحست شفتي وكبدي تهف على آيس كريم بسكوت ..

تلقت يمنة ويسرة.. وجدت كشكاً دفعت أُمي إليه..  
 كانت لا تزال تهذي: (سلمى أبوك وينه؟ ما قال متى يبى عشا..؟)  
 أخذت مثلجتي تقطر طفولة ولهفة وذكريات.. فوق منديل لحسته قبل أن أحس  
 البسكوت..  
 جميلة أنتِ يا أياماً عشناها ونحن نعيش..  
 ونحن نريدها أن تبقى..  
 كما نريدها الآن أن تغادر بسرعة.. بأسرع ما يمكن..!

\*\*\*

مجموعة من الفتيات تجمّعت حول كرسي ما.. تضحك بهستيريا عجيبة على  
 شيء ما..

كنت أحس مثلجتي حين مررت أَدفع عربة أُمي.. أبحث يمنة ويسرة..  
 ربما كانت شقيقتي في ركن ما وقد أخبرتني أنها حين تأتي فستصل..  
 تذكرت من ضحكهن ضحك الفصل في الحصة السابعة في عز القبط..  
 حين تنطلق ضحكة هامسة فينفجر معها الفصل بلا معنى..  
 سوى أنها ضحكة الحصة السابعة..  
 فطنت لأُمي تستجدي هذه المرة  
 وقد لمحت الـ.. آيس كريم في يدي..  
 - (يا بنيتي.. أبي عيشة.. عطيني عيشة.. بس أبل ريقى..!)  
 ولطالما حرصت ألا تراني آكل.. أو تشم رائحة الأكل وقد مررنا من كشك ذرة عبقت  
 روائحه بحيث دخلت تجاوبف أنفها.. ولم يعد بوسعي سوى أن أركع وأبل منديلي بقليل  
 من الماء.. وأمسح به شفيتها الطاهرتين..  
 ناحت والدتي بصوت عالٍ هذه المرّة والدمع يتسرب من عينها:  
 - (لا لا.. ما أبي ماء.. أبي عيشة.. عطيني عيشة.. شين آكله.. عند الله سعة!)



وانفجرت لحظتها عاصفة من الضحك الهستيري خلفي ..  
وأنا أعدّ نفسي لأخبر أُمّي أنها مصابة بالسكر .. وأنها لا تستطيع أن تأكل إلا ما حقته في  
معدتها عصر اليوم ..

التفت أقل من لحظة، حيث انكمت الضحكات بغتة .. وحيث عدت بوجهي لأخاطب  
أُمّي

انفجرت الضحكات مرة أوجع .. وأعمق ..

وإلى حيث أردت أن أدفع كرسي والدتي والدمع يزدحم على جفني ..

وصليل الفناجيل يضطرب داخل السلة، حيث أدفع بعنف ..

- (عمى .. إن شالله .. ما تشوفين ..)!

أخفى إجهاش عيني طولها اللعين .. وهي تلعن وتسب وتحدث في الجوال ..

خوف شديد وغربة اكتفتني .. وذهول والضحكات تطاردني ..

لمحّت يدي والدتي تمتدان فجأة للأمام ..

- (منيرتا الأحمد .. هلا والله .. يا الله حيها)!!

كانت امرأة مسنة تنحني على والدتي لتقبلها بشغف:

- يا الله إنك تعظم أجرها .. يا الله إنك تعوضها بالجنة!

قبلتها والدتي بشوق عظيم وهي تسألها عن زوجها .. ومزرعة أهلهم .. ونخلهم ..

والأرطى .. والسبيل ..

وحيث تشبثت بها والدتي وأنا أحاول فك الاشتباك بكلمات امتنان للعجوز الحانية كي

تمضي بسلام خلف ابنتيها اللتين تشيران إليها في إحراج وتقرز واضح ..

- (ورا ما تقهوين معنا .. حالفتن إن تقهوين يام فهد ..)!

دفعت العربية بألم لا ينتهي ..

صوت الضحكات ما زال في أذني .. يخرق صماخها ويقول لها إن هناك كائنات ملعونة

تقتات من ألم الآخرين ..

ويبهجها وجد الفقراء.. وضعف المساكين..  
وتثير نشوتها (كما لا يثير أي شيء آخر) بهجة أن استغنى.. إن إلى ربك الرجعى..

\*\*\*\*

وقت المغرب سيحين.. وشقيقتي لم تصل بعد..  
ولم تتصل.. وعلي أن أستعد للصلاة..  
- (وين نبي نروح يا سلمى؟)  
دفعتها باتجاه دورات المياه.. أذفعا برفق بين الوجوه التي تتأكد من مكياجها في المرايا..  
وتشد ملابسها لأعلى أو لأسفل..  
ترمقني بعين باردة تكاد تكون ناقمة..  
تقيسني من أعلاي لأخصص قدمي وأنا أذفع والدتي إلى أحد المراحيض..  
احتقنت عيناها فجأة بذهول مقلوب الشفتين..  
فوجئت بدقائق بصوت عالٍ نهرتني به عاملة النظافة وأنا أفرغ كيس التبول على جانب  
كرسي أمي في أحد المراحيض:  
- (إش هادا مدام هادا ممكن سوي مرض.. أنتي سوي كذا في بيت.. ماما مريض  
ما في جيب حديقة..!)  
ونظرتُ جيداً إلى من أوصتها أن تقول هذا لي وهي تبتعد في خوف وتقرز غير  
منته..  
توضأت وسط هذيان أمي عن أبي رحمه الله وعشائه الذي لم يطلبه بعد..  
وصليت فوق الثيل النظيف بسرعة.. أرمق في صلاتي عيوناً قبيحة لفتيات تضحكن بلا  
معنى.. تهاجمني وألكمها.. ألكمها.. أبصق عليها بلا رحمة..  
سلمت سريعاً وأنا أراقب وجه أمي يتبسم ويتبسّط بغتة..  
وتلقي سؤالاً بارع الطيبة:  
- (أنتم وش يقال لكم يا halhurma)؟!)

عجوز تتوضّع فوق فراش قريب .. تلوي فمها وتعقد حاجبيها كأقبح حيزيون ولدت منذ قرن ..

تكرر أُمي السؤَال بصوت أعلى .. (من أيّ عرب أنتم؟ وش يقال لكم؟) وقيل أن أهرع لأطلب منها السكوت أو أضع يدي على فمها.. جاوبنا صوت لا حدود لقباحته:

- يقال لنا الله يستر علينا وعليكم..!

هرعت أضع يدي على رأسها وأهمس بقوة وخوف:

- (يمه اسكتي .. وش تبين بها .. يمه .. ههششششش..).

- (وشو؟ وش يقال لهم؟ وش يقال لكم يا هالأجودية)؟!

زمجر صوت العجوز مع امرأة لا تفل عنها قبحاً:

- (وش تبين بنا الله لا يبيتس)؟

\*\*\*

هجم الليل على قلبي بلا رحمة .. وأنا أنهض متعثرة بعباتي ..

بسرعة أريد بها للقيح أن ينتهي ..

ألتقط جوالي .. شقيقتي لا ترد ..

أدفع العربة وأمي لا تزال تكرر سؤالها وتمد يديها ..

- (عطينا تميرات يا هالأجودية .. عند الله سعة ..

سلمى .. وبيتس)!

يطردني صوت القبيحتين: (يا الله تكفيننا شر من به شر .. الله يكفيننا شر عيون خلقه ..

حتى التمر يشبهون به .. دوتس مير خوذي عن عينها)!

أدفع بكل قوتي .. نعم حتى يهتز جسد أُمي الضعيف ..

أبحث عن مكان لا يوجد فيه قبيحون .. ولا قبائح ..

لاح لي خيال امرأة تشبه أختي .. ناديت بصوت عالٍ:

- أمل .. أمل !! يا أمل ..

القهر في داخلي جعلني لا أهتم أهى هي ، بل جعلني لا وقت لدي لأشك إن كانت هي ..

- أمل .. أمل .. أم راكان ..

- نعم ؟

صوت ساخر ناعم مرق من جواري ..

- أمل .. يا أمل ..

- نعم ..

مع قهقهات مكتومة منقوعة بثقل الظل ..

التفت لأرى القبيحات إياهن يتجمعن حول لعبة ويلعقن الـ .. آيس كريم ..

لم أجرؤ حتى أن أكرر ندائي وأنا التفت بعين ساخنة إليهن ..

خوف قط متحفز لانقضاض بشع ..

كنت في وضع يسمح لي بافتعال مشكلة .. لكنني دفعت العربية باتجاه أختي ..

وأنا ألقى نظرة طويلة على القبيحات بادلنني إياها بقحة لا مثيل لها في الوجود ..

كررت الاسم وأنا أدفع العربية وسط ازدحام كبير ..

نحن باتجاه بوابة الخروج ..

أمل ترتدي عباءتها ..

- (لا معلش أختي .. شكلي مشبهة عليك .. أسفة) !!

- لا عادي خذي راحتك !

ارتفع عويل أمني جيداً هذه المرة ..

- (أبي عيشة يا بنيتي .. أبي شين أحطه في فمي بس ..) !

قبضت على كف أمني وهي تستجديني فيما أهتف في الجوال في عصبية:

- (ألو .. أمل .. وين الناس؟ خلاص بنطلع؟

- خالتي جتنا فجأة وما أقدر أخليها في البيت لخالها..!

- والوعد؟

جاووني صوت حاد متقطع يعلن انقطاع الإرسال ..

يعبث بجوفي .. بتلافيف دماغي .. ينفث في روعي غربة أكثر إرعاباً من الموت ..

تندفع أصوات أفبح ممزوجة بأضواء بوابة الخروج .. تنفخ في أذاني المحشوة ..

- (حرام عليك جيبني لها شيء تاكله ..

- أعوذ بالله عطيها لومتيرة ..!

- يا لله لهالدرجة ما في إحساس .. هذي أمك ..!!

تتطوع إحداهن وتدس في فمها تمرة سكري ..

تومئ أيدٍ كثيرة في وجهي .. وتمتد أصابع طويلة وأكف محتاة لتتهتز في غضب أمام

عيني المرتعشتين ..

وأصوات كوقوفات الدجاج تصيح في وجهي مذكرة ببر الوالدين .. والتعوذ من حالي

والعقوق .. وأمي تلوك التمرة في نهم بلا حدود ..

- لا لا يا خالة فيها سكر .. ما تبلع .. أصلاً ما تبلع ..

كان الوقت قد فات جيداً وأنا أمد أصابعي داخل فم أمي التي شرقت بشدة .. سعلت

بشراسة وشهقت كما لم تشهق من قبل ..

بعد دقيقة كاملة من الشرقة استردت نفساً واحداً أفرغت معه كل ما بجوفها الضئيل ..

من بقايا حليب العصر وعصارات معدتها المثقوبة ..

على أرض المنزل .. فوق ملابسي .. وملابسها .. وملابس بعض الحريم ..

جوقة من التنقزز والصراخ والهروب بعيداً عن بقعة القيء ..

- نادوا العاملة .. إيش القرف هذا؟

كانت الأضواء أوجع هذه المرة ..

والصراخ لم ينقطع ..

لم ينقطع .. !

\*\*\*\*

نمت طويلاً .. طويلاً ..  
حلمت بالقبيحات يتقيأن ..  
ويضحكن ..  
وينظرن لقيئهن ويضحكن ..  
يتبولن على أنفسهن ..  
تنهرهن عاملة النظافة .. بأن يفعلنها في البيت ..  
تلعنهن إحداهن .. وتفجر حولهن عواصف من الضحك والقيء والتويخ ..  
رأيت العجوز وابنتها تصعدان جبلاً ثم تنزلقان ..  
وحريم سود يصرخن في أفواههن: (الله لا يبيكن .. وش تبون .. وش يقال لكم)؟  
تمد أُمي يديها الطاهرتين إليهما ..  
تلف غدفتها الطويلة حول كرشيها ..  
ثم تخنقهما .. تخنقهما .. تخنقهما ..

\*\*\*\*

إليك يا سماءات الجمال ..  
يا فضاءات الله ..  
أريدني أنعتق إليك ..  
بعيداً عن أرض محشوة بالقباحات ..  
مع روح بيضاء كروح أُمي ..  
حيث تجد ما تبلعه ..  
ومن يخبرها من أي عرب هو ..

ومن يكون لها منيرتا الأحمد..  
هناك .. حيث لا تخاف أُمِّي..  
حيث لا تجوع ..  
ولا تحتار في مكان القبلة..  
ولا في أمر عشاء أبي.. !





من خطابا الأولين



## 7

الجميل في حكاياهم وأنا أسمعها من فم إحدى العجائز إنها تقول كل شيء .. وتجمله ..  
لا تفصله وتضيع وقتك ..  
تجعلك تفهم ما تريد (أي الحكاية) مباشرة .. دون حتى أن ترهق عقلك بالتفكير  
والاستنتاج ..  
ذلك أنه كان لديهم الوقت كله .. العمر كله .. ليسمعوا ..

\*\*\*\*

بدايتها هي شور حريم ..  
حين أتت امرأة سبابة مشاكل إليها .. تعرض عليها ثوباً جميلاً لا تستطيع شراءه ..  
في بيتها الطيني الجميل المحمي برجل سريع الغضب شديد الغيرة ساخن الجوع كريم اليد  
كثير الولايم .. إلى آخره من مواصفات رجال نجد الأولين ..  
وتبدأ القصة بالتحديد حين تبدأ الدلالة في انتقادها وحشو عقلها المسالم المرتعد بأن تنظر  
في لبسها .. ولبس ابنتها .. وبخل زوجها .. وكيف أنه يمكن بقليل من العبت أن تشتري  
دراعة جديدة .. وتشتري ربما مجولاً .. أو حتى معضداً حين تكون ماهرة وحريرة ..

- وما يمنعك أن تكتسبي من ورائه؟ هل سيفطن؟ كل الرجال لا يفتنون!

هكذا غادرتها وقد أعطتها الثوب مرهوناً بأن تدفع ثمنه..

وكذلك تعدها أن تأتيها غداً بزبون يشتري بعض ما يوفره الزوج الغيور الغاضب.. دون أن يعلم الأخير وهو يظن بيته راضياً قانعاً بأن يملاً تمراً وسمناً ودقيقاً كل أيام السنة..

يا سلام.. من كان يحلم بعيشة كهذه؟!

يأتي الأعرابي من الغد وتستقبله الزوجة الخائفة.. تصطنع الفهارة والجرأة والتجارة وهي تأمره مرتبكة مذعورة:

- انقث من هالجلسة (١)!

وينقدها الأعرابي فرانسي (٢) ويدخل الجصة ليملاً حق الفرانسي..

وكأنني أنصوّر نشوتها.. أو أرى نشوتها في رعشة يديها وهي تقلب الفرانسي الذي لم تره في حياتها.. ولا حين دفع زوجها صاحب المزرعة مهرها إلى والدها.. ليدفعه إلى والدتها..

هل تذكرون كلكم إحساسنا بطعم الريال في أول يوم مدرسي؟ ما لم تكونوا قد

تحسستموه من قبل طبعاً!

كان نفس شعورها وهي تتحسسه وتشرّحه إلى أثواب عيد وهدايا لأهلها وعطايا للجارات وطلّاع للوالدات..

ولكن عمر الأحلام في قصص الأولين قصير للغاية.. حالما يزمجر صوت الزوج الغيور في عودة غير محسوبة..

منذراً بخوف لا نهائي.. خوف مسعور دفعها إلى أن تقفز للجلسة الحجرية.. وتعلق بابها على الأعرابي الذي جاء يشتري..

وهكذا (وحسب القصة) يختنق الأعرابي المسكين.. ويموت!

\*\*\*\*

الأصعب من أن تخبي جثة.. هو أن تخبي جثة رجل.. وأن يكون الفاعل امرأة!

حين كشفت موته داخل الجصّة لم يكن هناك من يعينها ليسحب هذه المصيبة ويرميها في قلب المزرعة قبل أن يأتي الزوج.. سوى المملوك الأسود!  
وهكذا تستدعيه لينقذها من هول موقف قد يكلفها ليس فقط زواجها وسمعتها.. وإنما حياتها..

المملوك لا يدع ضعف السيدة الجميلة يمر هكذا..  
الخوف البشع في نفسها..  
هو ملوئ ذراع القصة.. والفواصل بين القوة والضعف.. والحرية والعبودية..  
هو ما يجعل المملوك مالكا.. والسيدة تدعن لرغبة أئيمة يملئها عليها المملوك.. وإلا فسيفشي السر للسيد..!  
هكذا تختفي جثة الإعرابي.. وسرّه الصغير.. والغلطة الصغيرة التي أدت لموته..  
وموتها بين ذراعي المملوك!

\*\*\*

والأمر لا ينتهي عند حد مرة واحدة..  
في كل مرة ظل المملوك يملك سراً كبيراً تراكمت عليه أسرار أكبر.. وفي كل مرة تدعن لرغبته الخاطئة تحت طائلة الخوف اللانهائي..  
الآن حياتها وحياة طفلتها على رأس لهب سراج.. تحت رحمة رجلين.. أحدها مالك غاضب غيور.. والآخر مملوك وضع مستغل مستمتع..  
سؤال: ما طعم الورطات التي توقعنا فيها غلطات صغيرة بحجم شور امرأة؟  
القصة تصوغ لنا تدخلاً خارجياً.. جعل من كل ما هو أعلاه.. ألماً مقصوداً.. للعظة والعبرة!

تظن البطلة.. (لم يقترح أحد لها اسماً بالمرّة.. المهم أنها من نساء الأولين)..  
أن السر سيدفن مع المملوك الذي استغل خوفها وسرها أبشع استغلال..  
حين تدفعه بكل قوتها إلى عمق قاتل وهو يروّي من القليب..

وهكذا مات المملوك .. واستراحت من الخطيئة .. والسر ..  
ولم يبق إلا التوبة .. !

\*\*\*\*

هيئات أن تكون الحياة بهذه السهولة .. هيئات أن تنتهي أخطاؤنا وتموت أسرارنا دون أن  
تكوينا ..

بعد أشهر كبر بطنها .. وتكوّر .. وطوال أشهر الحمل يطرد قلبها المحروق بالذنب .. ألم  
خوف لن ينتهي ..

أيمكن الطفل عربياً فتكون خطيئتها قد انتهت؟ وقلها قد استراح؟  
أم يكون أسود فتكون خطيئتها بشعة لا تريد أن تكف عن الكي والتهريج داخل حياتها  
القصيرة البسيطة؟

ألم يكتفِ الموت منها؟

ألم يقتلها كل مرة كان المملوك يراودها عن نفسها؟  
ألم يقتلها كل مرة ينهرها فيها زوجها .. يأكل معها وتأكل بلا روح ..  
أو يضاجعها وهي ترتعد فرقاً من سرّ رهيب يحصل في غيابه؟  
ما أصعب ضلع الدين .. وقهر الرجال .. !

\*\*\*\*

وهكذا تذهب للبر ويدها فأس .. تجمع حطباً للولادة (هكذا قالت لرجلها) .. وبطنها  
يرفس معلناً مجيئاً لا مرحباً به ..

والقصة تقول إنها ذهبت .. وجاءت بطفل أسود كالليل ..  
وحيث أيقنت سواده الذي لا شك فيه .. بكت طويلاً وتذللت لله تعالى أن يغفر لها ..  
لفته في قماطة وعادت به جثة مخنوقة .. ورمتها في القليب ..  
سأل الزوج عما في بطنها .. أخبرته أنه (ها) ولدت ميتة زرقاء الوجه ..

وأن القابلة دفنتها فوراً..

لم يكثرث كثيراً وهو ينام وابنته في بشته الصوفي .. طاهرين لم تعلقهما خطيئة .. ولم يكوهما سر .. ولم يطير عقليهما خوف ..

هي لم تنم بقية حياتها من وجد الخطيئة في كبدها .. وقلق الأسرار في مدفنها ..

خطاياها التي دفنتها في القليب .. الصغيرة .. والكبيرة .. والأكبر ..

شققتم دموع التوبة خديها ..

ولكن هل تستطيع لذة التوبة أن تغسل ألم الخطايا التي لا نختارها؟

لا أظنها تفعل ..

\*\*\*\*

- الجصة: غرفة حجرية في بيوت المزارع النجدية .. يكتنز فيها التمر وتغلق بإحكام .

- انقث: النقث هو قطع جزء من العجائن .. والتمر المكنوز .. والأشياء المتماسكة كالطين .

- الفرانسي: عملة قديمة جداً قبل الريال .





لندن

٢٠ يناير - ٢٠٠٨

السرطان



## 8

أعتقد أن أسوأ أنواع الألم.. هو ما يشاطرك الجميع بكاءه.. لأنك حينها لا تقدر أن تشكو.. ولا يحق لك أن تتأوه.. حتى لا تزيدهم ألماً.. ويزداد ألمك..

كان علي أن أقاوم خوفاً كثيراً، وأنا أستولد هذه الكلمات.. لأنطق عن خوفاً وأنكلم عما يتحاشى الكثير من الناس والعالم النطق باسمه.. كما كانوا يتحاشون نطق اسم الجن دون تسمية عالية النبرة.. وتلفت خائف حقيقي.. وكما يتحاشون ذكر اسم الحكومة دون أن يخفضوا أصواتهم أو يهتفوا بأن الله يعزهم ولا يعز عليهم..

الناس طالما كانوا يخافون الجن.. ولطالما خافوا الحكومة والسرطان.. لا يذكرون اسم أحديهما تطيراً.. تخرجاً كأن أحدهم سيثير انتباه الزمن أو المباحث.. أشياء كثيرة يمكنهم أن يبرروا بها تحاشيهم نطق هذه الأشياء..

عندما يتحاشى الناس ذكر شيء ما يعيش بينهم وينهشهم ويتخللهم.. فهم يتدعون له أسماء كثيرة يلتفون بها عليه ولا يكفون عن الحديث عنه..

كنت أشعر بشعور أحدهم وهو يأتي بسيرة مريض بالسرطان (كما يأتون بسيرتي الآن) في مجلس كبير، يهبط الصمت والحزن والأفكار المؤلمة، فلان يطلبكم الحل، الله يخلف عليه شبابه بالجنة..

الخبيث الله يكفيننا شره!

انفراج غير عادي ينسبل في نفس من يقولها وكأنه قد تجاوز خطوط النار الحمراء وتحدى الجن.. وتغلب على خوفه حتى من الحكومة.. ومن ثم عليه أن يتعوذ منه ويستجير بالله تعالى..

كل هذه الأشياء ظلت تاريخاً بالنسبة لي قبل أن أكتشف إصابتي به قبل أشهر، ظللت أقوم خوفاً منه حتى مضى الأمر وصار عليّ أن أواجهه كما يتواجه الشجاعان.. وإن كنت أشك أنه شجاع وهو ينهش من لحمي ويقنات على ألمي وألم أطفالي الثلاثة وزوجتي التي تستعد للترمل..

لا شيء الآن يستحق خوفاً بعدما أعلن الطبيب أخيراً أن استجابة جسمي للعلاج لم تعد كافية.. آلام الناس من حولي تزعجني أكثر من ألم صراعي مع عدو جسمي، ولا أحد منهم يريد أن يتركني أواجهه وحدي دون أن أحمل هم التخفيف عن الآخرين ووعظهم بأن ما حصل لي هو قدر، لا العين ولا سحر بنات أم راشد العوانس ولا حتى الشيشة التي امتنعت عنها أول العلاج.. ومن ثم عدت إليها حين أخفق في أن ينتزع القبيح من أحشائي..

أنا حزين.. بالتأكيد.. وآلامي لم تعد تطاق حتماً.. ولكن ألمي لوجع أمني وأبي وأخوي الكبيرين وأخواتي الكثيرات أكبر وأشنع.. ما أوجع من أن ترى الآخرين حولك يتألمون وأنت تذهب إليهم لتنسى ألمك..

أخيراً حلفت عليّ أمني ألا أقود سيارتي، وأن أعتد وزوجتي على أخوي.. الآن أنا محاصر تماماً بإحراج أمني ودموعها.. وصايا الناس لأبي وزوجتي وأخواتي.. إمدادات كثيرة تصل إلى بيتي كل يوم لتزيد ألم أحشائي ألباً.. ماء زمزم.. رقية.. غسل عتبات وملابس.. حليب خلفات وأبوالها.. وصفات مطبوعة على أوراق بخط غير منتظم..

أهكذا يفعل الألم والحب بالناس؟ هذا هو الجانب الأسوأ الذي لا نراه من الحب

حينما نحب ..

على امتداد سبعة أشهر حشدت مشاعري على قوانين الطوارئ .. أحببت زوجتي وأطفالي كما لم أفعل من قبل .. والدتي وأبي وإخوتي .. طلبت أرقام أطباء في أمريكا وأوروبا .. وبحثت حين أعيتنا ذات اليد عن وساطات كثيرة و(حب خشوم) لأفتح ملفاً في العسكري ..

كل تلك الأيام مزعجة للغاية .. ولا أريد حتى تذكرها رغم أنني أقترب من الموت أكثر .. والورم ينهشني أكثر .. وألمي يتضاءل ليصبح كل ما أتمناه هو أن أعيش حياة طبيعية بلا بكاء حولي ودون أدوية أو قراءة أو أي شيء يذكرني أنني مريض .. اليوم فقط قررت أن أرتكب كذبة .. بأنني شفيت .. بأن ما في داخلي توقف عن النمو .. وأن خلاياي استجابت للعلاج ..

نعم ما الذي سيحصل من كذبة واحدة أشتري بها راحتي مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يقضي الله أمره ويأخذ أمانته؟

ولقد أصبح ضميري حين اقترب الموت مزعجاً جداً .. ويحاسبني حتى على حروف الجر والهمزات .. ربما كان هذا أفضل ما في اقتراب الموت .. أنك لا ترتكب الخطايا ببساطة ..

وحين قررت أن أكذبها وأن أرتب كلماتي التي سأقولها لأمي وأبي وإخوتي .. وطبعاً زوجتي .. اكتشفت أن قدرتي على الخطايا تراجعت كثيراً .. وأن احترافي القديم للفقش والتأليف لم يعد كما كان ..

بكت أمي طويلاً وعانقتني شهقاتها .. وشعرت طويلاً بالذنب وأنا أتخيل خيبة أملها لو عرفت أنني كنت أكذب ..

يا رب اغفر لي .. فعلتها لكي أحظي بيوم واحد دون شعورهم البغيض وهم يرون الموت يزحف نحوك ببطء .. دون أن يكون بأيديهم شيء غير أن يجزعوا ويعصروا قلبك .. ولا أحد منا لا يخاف الموت .. يكذب أحدنا لو قال ذلك إلا أن يكون مجنوناً أو غير

إنسان ..

لكني أريد أن أنساه وقد أحاط بي سبعة أشهر طوال ثقال .. طعمها أبشع من طعم  
الصديد وأثقل من تباطؤ دقات القلب .. وأوجع من مغصات الورم في الأحشاء ..  
يارب اغفر لي ما كذبت على أمي وأبي .. وإخوتي ..  
سيدبح أبي ذبيحة .. سيدعو الكل فرحة فرحة برحمة الله .. سيوفي بنذره .. اقترحت عليه أن  
يبقى الأمر سرّاً حتى تخرج نتائج أخرى تؤكد الأمر .. هناك يا أبتى من لا يشفى والناس  
تحسد الفقير على موته الجمعة ..

اقتنع أبي أخيراً بذبيحة صغيرة في التنهات مع إخوتي وأعمامي وخالي الوحيد ..  
الذين نحبهم .. والذين يعز عليّ أن أشتري منهم لحظة فرح عارمة بكذبة صغيرة غير  
متقنة .. مسح لأجلها خالي دموعه وهو يكرر أن الحمد لله ..  
هرول أخوأي وأخواتي ينقلون وينصبون أدوات البر .. وينثرون روائح المكان الذي  
نعشقه ولا نشعر فيه بالغرابة حتى عند الموت ..

أحسست بذلك جيداً وأنا أملأ رثتي من هواء البر وروائح الربيع الرطبة .. وهي تتسلل  
مختلطة بريح الحطب عبر السماوات .. تغويننا ولا تشبعنا كجميلات البدو وملكات  
أساطير الصحراء ..

ولكم وددت أن أصلب إليك أيها التنهات بقية حياتي .. تحتي رملك الرطب وقت  
الربيع .. وفوقي سماواتك المضطربة بالسحاب .. وحدي حتى دون أمي وزوجتي  
وأطفالي ..

يكفيني منك أن تعرفني وأعرفك .. ولا أبقى في دوائر الخوف ورددهات الانتظار في  
المستشفيات ما بقيت ..

لم أرد أن تلتقي عيني بعيني والدي وهو يرفع يديه بالسكين والدموع الفرحة تنسكب  
مع دم الخروف .. وكلمات الشكر والحمد ودموع الفرحين تخزيني أكثر .. ونفسد عليّ  
جمال اللحظة ..

أقنعت نفسي أن كذبتني كانت حقيقة لأستمتع ببقية اليوم .. تعودت منذ بدأت حالي  
تسوء ألا تكون آمالي ومخططاتي أبعد من يومي .. مؤلم وموجع ذلك .. ولكنه حقيقي  
ويحملك من آلام خيبة الأمل .. وفي أحيان كثيرة .. يجعل يومك يبدأ بدهشة وامتنان  
وومضة من أمل تفتت عليها مدة يوم واحد ..

الآن فقط لا أريد أن أموت .. ليس لأن زوجتي تريدني .. ولا أن أطفالي سييتمون .. كل  
هذا تدبرت أمره منذ سبعة أشهر ..

الآن أريدني أن أبقى في التنهات إلى أن يموت هو ثم أموت .. عيب أن أموت قبل أن  
يموت كل هذا الجمال ..

نسفت شماعي على كتفي ومضيت وحيداً إلى الشمس التي كانت تسطع في غرور غير  
معتاد في مثل هذا الوقت من العام .. يا لغورها الحبيب إلى قلبي جداً .. الآن أحس  
بأنني عدت مئات السنين لأكون بدوياً يمتد كأرطاة ذات عمر طويل وجذور وريح يمتد  
مسافات طويلة .. الآن أنا هذا المكان .. هذه الصحراء .. وهي أنا ..  
ولا أريد من نفسي يارب إلا أنا .. وهذا المكان ..

– ( تعال تقهوا يا وليدي )

جاءني صوتها الحبيب ينضح أملاً وإشفاقاً .. يا ويح خجلي منك يا يمة .. ومن نفسي  
أيضاً أنني لا أملك أن أساطع عينيك وهما تطوقاني لهفة من أعلى رأسي الخالي من  
الشعر إلى العقال الذي يطوق ذراعي وشماعي الملفوف عليه ..  
لهفة أم .. وحق لها أن تكون ملهوفة وأصغر أبنائها ذو التاسعة والثلاثين يرحل عنها في  
عز شبابه وفورة نجاحه ..

في القرآن الكريم هي آجال مكتوبة .. وفي أعراف الناس ما زلت صغيراً جداً لأرحل ..  
وسأترك خلفي أرملة وأطفالاً يستحيل كل واحد منهم إلى قصة حزينة باكية بجذور  
وشجون طويلة ..

جحيم الأفكار هذه يعذبني فوق أوجاع عذابي .. كل هذا يومض عيني لحظة أستوعب

أن هناك ما يسكن أحشائي ويستعجني لأرحل..  
 كرهية أنتِ أيتها الحياة أكثر الأحيان.. كوني جميلة مرة واحدة ليس لأجلي.. لكن لأجل  
 هذه التي تومئ يداها المرفوعتان باتجاه السماء حمداً وشكراً.. تصب القهوة بروح  
 شاكرة طيبة ممتنة يظهر طعمها في الفنجال.. يتسرب إلى حلقي في السكرية وهي تذوب  
 في فمي..

شكراً لك يا رحمن أن جعلتني أراها سعيدة هكذا..  
 أم العيال ترمقني من خلف جلال صلاتها بنظرة أمل وليد.. عمره عمر كذبتني وأنا  
 أعانقها وتبكي فرحاً.. وتقبل رأسي الأصلع ويديّ الزرقاوين من آثار الإبر..  
 (لا يا بعد إيدياتي).. أبتسم وأنا أتذكرها تقبل مواطن الإبر وتبللها بدموعها.. تتمنى لو  
 كانت فيها ولا في..

يا الله.. رائحة الذبيحة تملأ المكان.. وصوت القدر يهدر من بعيد.. ولأول مرة منذ سبعة  
 أشهر يضحك الجميع صدقاً ويرتشفون العقود× ويتخاطفون الحميسة بلذة حقيقية..  
 أكل ذلك الوجوم كان بسببي؟ لم أخبرتهم من الأساس؟ لم كان عليّ أن أنتزع منهم  
 هذه الأفراح التي بلا حدود حين يرقصهم ربيع التنهاة؟  
 أولادي وأولاد إخواني وأخواتي يتراكضون حولي واللجنة تكاد تومض بين أيدينا..  
 وضحكاتنا تعمر المكان وتسمر الزمان.. وتجعل الشمس تبتسم معنا وتتنازل عن  
 غرورها.. لتطبع على أفواهنا قبلات شهية تنتشر داخل أرواحنا ونحن نستقبل القبلة  
 ونصلي العصر..

ما الذي يجعلني أفقد الأمل وقد رأيتهم كلهم يعتقدون من ألم استعبدتهم سبعة أشهر؟  
 تبتاً للمرض.. وتبتاً لليأس حين يجعلني أنتحى وأترك وظيفتي وأركض داخل أروقة  
 المستشفيات.. وأتلهف كل مرة لتخرج نتيجة العلاج..

بعد اليوم لن أذهب للمستشفى.. لن أزور أي طبيب ولن أخذ أي علاج.. ولا حتى  
 مسكنات الألم.. سأعيش كما يجب أن أعيش.. وحين يحين وقت رحيلي سأودع



الجميع ببساطة ..

قررت كل ذلك وقد اختليت بالشمس وهي تهبط باتجاه الرمال .. كم سأفتقدك أيتها الشمس ..

أفلحت هذه المرة أن أتغلب على مخاوفي من عالم ما بعد الموت .. خلقتني الله رجلاً عملياً دائماً .. وبهذا المنطق .. لدي بقية عمري لأفعل ما كان علي فعله من قبل .. أقرأ القرآن الكريم وأصلي وأصل الرحم وأسامح وأحلل .. ليس كمن يساقون إلى الموت وهم ينظرون .. ولكن كرجال “ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ” ..

يروق لي أن أبدو كرجل صالح في عين نفسي .. هذا يجعلني أقرب إلى الله تعالى أكثر مني كرجل خاطئ منبوذ لا يجزؤ على الاقتراب من أبواب الرحمن ..  
انهمرت دموع أمي فوق وجهي وأنا أريح رأسي في حضنها .. رائحة حنائها لم تزل رطبة تخترق تلافيف دماغي وتصيبني بنشوة غريبة .. وإنني الآن لست خائفاً من الموت .. أجمل ما تحصل عليه وأنت في حضن من تحب أنك لا تخاف حتى من الموت ..  
احتضنت كفيها وابتسمت طويلاً لنفسي وضحكات أخواتي وإخوتي من حولي تصيبني بدفء لا محدود .. هكذا أريدكم .. سعيدين بأفراح لا تنتهي يا من أحبكم ..  
أغمضت عيني وامتد شريط أيامي للخلف طويلاً بمغامرات لم تنته إلا بإعلان إصابتي بالمرض .. الآن ليس وقت الندم والتوبيخ .. ولكنني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما صرخت في وجه أمي .. ولما ضربت أختي ولما تحدت أبي .. ولما تشاجرت مع جاري وقاطعت ابن عمي .. ولما حرمت زوجتي وصدفت أطفالي .. ولكنك أثلثم يدي أمي كما أفعل الآن وأستمع بحياة دافئة بين ذراعي من أحبها .. ولكنك أدلك قدمي والدي المتشطبين .. وأرى فيهما تراب الجنة ينتثر بين يدي ..

ولربما رأيتني أساعد أخي الكبير في قسط سيارته .. ولربما رأيتني أسعى في قبول أختي المطلقة في الجامعة ..

ما أجمل الحياة حين نكون بدواً.. حين نفهم أن في الحياة قطعاً من الفردوس ومواطن  
ربيع لا تنقطع.. وأن علينا أن نتبع مواطن القطر كما يتتبع البدو.. ونرفع رؤوسنا  
للسماء دوماً.. ونقول يارب..  
أما حين يشتد القيظ فنقطن.. ومنتظر إلى أن تنفجر زفرات غضب الصحراء الملتهبة..  
حياة بفصول أربعة.. من قال إنه لا توجد في صحارينا أيام جميلة؟  
قهقهت أنا وزوجتي ونحن نكررها بعدما مضت على رحلة التنهات سنوات أربع أنجبنا  
خلالها بنتاً..  
ونبتت خلالها صلعتي وصارت شعراً زيتياً مليئاً بالشيب كما كان..  
لقد كانت كذبة صغيرة.. ويوماً جميلاً لن ننساه..

لندن

سبتمبر ٢٠٠٨

البنغالي..



## 9

أسوأ ما في الحياة قد يكون أجمل ما فيها بعد حين ..  
حين نبقى لنرويه لمن جاؤوا بعدنا ونسقي القصة بدمع الاعتبار .. ولو كنا أبعد ما نكون  
عن الاعتبار ..  
كنت أبلغ الحادية عشرة من عمري .. حين كنت أهرع كل صباح ولما أغسل وجهي وقذى  
عيني بعد لأعبث بعبد القادر .. عامل مزرعتنا البنجالي الهزيل ..  
لست أدري أي متعة كانت تملؤني أنا وابن عمي في حشو أفواهنا بالسخرية بهذا  
الكائن .. وافتعال المقالب التي نقطع بها أيام عطلة صيفية ملتهبة مروّعة في مزرعتنا على  
طرف الديرة ..  
لم يكن شيء أكثر إبهاجاً من منظر عينيه الحمراوين وهو يرمقنا بقله الحيلة أثناء عمله ..  
وقد مر من أذنه حجر أو لطح ثوبه المتسخ قطعة طين .. يزرعنا بصوت عالٍ لا يفزع  
الطير .. ويضمن لنا حفلة ضحك يومية لا تنتهي حتى بخيزرانة عمي وهي تهوي علينا  
لردعنا وتفريقنا ..  
ولا بوعظ أمني وهي تخوّفنا بالله وانتقام العمال بالقتل والتقطيع للصغار المؤذنين ..  
كنا أشقياء ومصداً للأذى وحسب .. ولا أبعد في عقل أحدنا من ضحكة يوم ومباراة

عصر مملوءة بالتراب واللعان والشتيمة.. وشاورما تقطر دهنا مع قارورة ببسي في نهاية اليوم.. كنا قبيحين وأكثر.. طفلين في الحادية عشر وأكثر..

عبدالقادر كان يصلي كل يوم في المسجد.. وكنا نتمعد أن نصفّ بجواره لكي نسد أنوفنا ونشعره بتقززنا من رائحة عرقه النفاذة فيخرج.. ونحدث حركة ضاحكة جداً تبرك صف الصلاة الوحيد في مسجد القرية..

حين ضربنا عمي بالعقال تلکم المرة بسبب ما أخرجناه.. لمحنا اتقاد عيني عبدالقادر وهو يخرج صامتاً لعمله.. عينان حمراوان وظهر هزيل يركز ثوباً واسعاً لا يكاد يظهر تحته من لحم الدنيا شيء..

قررنا أن ننتقم من تلکم النظرة الشامتة بنا.. وأن نخطط طوال الليل كيف سنفرعه صباح اليوم التالي ونسكب عليه ماءً مثلجاً من البرادة..

اعترض ابن عمي بأن هذا سيكون أفضل ما سيحصل عليه هذا البنجالى

وهو في عزيبته الساخنة.. لماذا لا نسكب عليه تراباً ساخناً من تراب المزرعة؟

كانت أختي الصغيرة تتسمع لخطتنا وتهددنا بفضح أمرنا لأمي وأبي وعمي.. لم نأبه لها وقد راقت لنا تماماً فكرة التراب.. وكيف سيكون منظره وهو مبتل بالتراب ويجري

خلفنا لنضمن ما يكفيننا لمدة أسبوع من الضحك والعبث..

لم أتم الليل وأنا أفكر في الخطة.. وحين ملأ عيني النوم رأيت عبدالقادر يرمقني بعينه الحمراءوين.. يقبع في ركن غرفته الساخنة في طرف المزرعة.. يعبث بأنفه ويعدّل وزرته

القدرة..

لم أكرهه؟ لا أعرف..

لأنه يعبث بأنفه دائماً؟ حسناً.. أنا أفعل ذلك دائماً..

لأنه أسمر وهزيل؟

لأنه بنجالى؟ ربما نعم..

المهم أنه لا أمتع في الدنيا من إغاظته وجعله مادة ضحك.. لأن صوته كان أصحل حاداً

كصفيّر طائر مخنوق .. ومضحك .. ولم يكن يتحدّث العربية جيّداً .. وهذا يزيد الأمر  
كوميدياً ..

إنه وللحق لم يكن يتحدّث كثيراً .. كان صامتاً (وكان في الحلم صامتاً أيضاً) .. حين  
يتحدّث قليلاً فهو لكي يستلم بريده من عمي .. وحين يستلم راتبه في ملحق بيتنا، حيث  
لا يكاد يجرّ أن يجلس رغم إصرار أبي .. أو يشرب (بيالة الشاهي) مع عمي الذي  
يحدّثه بصوت خفيض ومن ثم يهز رأسه في قلة حيلة ويربت على كتفه العظمي المبقّع  
بالطين والتراب ..

العجيب أن عمي وهو مالك المزرعة وطالما كان يسوس العمال قبله .. كما تساس  
الحمير .. إلا أن عبدالقادر الصامت بعمله الذي لا يكف .. كان يجعله يهز رأسه (تضامناً  
أو تعاطفاً أو أي شيء) ..

عبد القادر من البارحة يعمل بلا توقّف .. وحين أخذنا له العشاء كان يصلّي ويبكي  
ويشهو ..

هل تظن ذلك جعلنا نشعر بشيء .. أو جعلنا ننسى نظرتة الشامتة بعد الصلاة اليوم؟  
طبعاً لا .. ونحن نضع الحلّة في الغرفة وننتظر أن يرفع رأسه من السجود .. فكّرت أن  
أركله وهو ساجد .. ولكن ابن عمي أبي ذلك ووعدني بخطة انتقامية جيّدة ..  
ومنذ أسبوع وأكثر كان عبدالقادر يغدو ويروح على عمي الذي كان يلوح بيديه في قلة  
حيلة ويقول: “ما في .. والله يا عبدالقادر ما في ..”،

هل عمي يؤخر راتبه؟

لا يمكن .. يرد ابن عمي وهو يفترش الدوشق أمام المكيف ..

أبي لا يمكن أن يأكل حق أحد .. لكن هذا الجرذ بالتأكيد يريد زيادة راتب ..  
أو يريد غرفة أفضل ..

(ما يخسى إلا هو .. هو زي الجرذ .. هالغرفة لو في بنجلاديش ما يسكنها ملك من  
ملوكهم ..

على فكرة بنجلاديش عندهم ملك؟  
 غفونا متدثرين ببراد المكيف على حلم الخطة البهيجة ..  
 وانسلت شقيقتي متوعدة أن تخبر والدي ..  
 ولم أر في النوم أكثر من وجه عبدالقادر متحجراً على عينين حمراوين تطفحان بكراهية  
 وألم يكفيان لتلويث الدنيا كلها ..  
 ولربما طال أمد الحلم فجعلت أنظر في عينيه الحمراوين حتى وجدتني أغرق وسط  
 طوفان من الألم والضيق والمرارة ..  
 وشيء كدت أتذوقه في فمي وأنا أغوص في عينين بامتداد قلب إعصار أو قاع دوامة  
 مائية .. تشفطني باتجاه أصوات مريرة وتنهيدات ..  
 وهم .. أكاد أشعر بثقله فوق قلبي الصغير يدق بانتظام ككتلة حديد صدئة باحمرار  
 عيني عبدالقادر .. ثابتة راكدة كجمود عيني عبدالقادر وشرودهما ..  
 أغضبتني قطرات الماء وهي تهطل من ذراعي والدي .. وهو يحاول إيقافني وإيقاظ ولد  
 عمي للصلاة .. رأسي ثقيل ولا يريد أن يتحرك من مكانه .. ولا ابن عمي وهو يتقلب  
 (شخيراً):  
 طيب طيب .. راداً على أبي وهو يظني المكيف: قوموا الصلاة .. الله يخلف ..  
 فتحت نصف عيني .. أدت عيني قليلاً قبل أن أكمل نومي أعمق مما نمت ..  
 وأكثر إزعاجاً مما غصت في عيني عبدالقادر ..  
 أحلام طويلة وكبيرة .. وأصوات صراخ كصفير الطيور المخنوقة .. وبعضها مخلوط  
 بعربية مكسرة مرت علي وسمعتها في نومي (وأظنها مرت على ابن عمي كذلك) ..  
 حين هرعنا فزعين كانت الشمس قد توسطت السماء .. وعرقنا كان يتصبب حرّاً  
 وزهقاً ..

هرعنا بقمصاننا وسراويلنا .. بلا ثياب لنرى ما الذي كان يحصل ..  
 أمي كانت تمسح دموعها وتقف خلف الباب ترمق من خلف جلالها ..



كان عبدالقادر يجري كمنجون في أرجاء المزرعة ويديه مطروف بريدي ..  
يصرخ في لوعة بحجم السماء والأرض ..  
يحثو التراب على وجهه ورأسه ويصرخ بلا وعي .. بلا انتباه ..  
يستصرخ الأيام والآلام التي قضاها في مزرعتنا يجمع نقوداً لعلاج زوجته ..  
أبي وعمي يرمقانه بقلة حيلة صامتين ..  
شقيقتي تهرع لأبي وتشير إلينا أننا من سكب التراب الساخن على رأسه وجعلناه يجن  
هكذا ..  
ينهرها أبي لتهرب وهو يمسخ دموعه بطرف شماغه ..  
- ماتت حرمتة!  
وكان ينتظر بريدها الأسبوعي منذ أكثر من شهر ..  
ماذا تساوي الأيام التي قضاها عاملاً محترقاً في حر الشمس السوداء في كبد السماء ..  
تنظر إليه بصمت .. وبشماتة تتلّهب أكثر .. تصفع وجهه الأسمر الفقير الهزيل ..  
تسخر من فقره وشقائه .. تحتقره كما احتقرناه ..  
تصعب عرقه وتصهر جبهته اللامعة وصلعته ..  
هو يصرخ بصوته الأصحل .. الحاد كأصوات العصفير المخنوقة ..  
يحتج على كل الأشياء التي يكرهها وتكرهه ..  
على القدر .. على الأيام .. يحتج على الشمس والصحراء والتراب ..  
على الطين .. ينظر إليه صامتاً بارداً ..  
على النخيل التي لّقحها وعانقها ترمقه في غرور ولا مبالاة ..  
على رؤوس البرسيم والشعير تطالع بعضها وترقب حسرته وتعود تهزها الرياح  
وترقصها ..  
كل شيء يكره عبدالقادر ..  
كل شيء لا يحس به ..

كل شيء من حوله يمضي ويجعله يصرخ ملتاعاً وحيداً ..  
يفتح للكائنات حوله يديه الملهوفتين .. يرسل إليها لوعته ويصرخ ..  
وكأنه يستعطفها أن حنانيك ..  
يجمع ما تسعه يداه النحيلتان .. تراباً يحثوه على رأسه ..  
يصفع به وجهه .. يحقن به عينيه ..  
(كفاية يا حر الأيام .. كفاية يا عذاب البشر) ..  
لم نعد نستبين إلا عويلاً ذاهلاً .. لم نعد نراه وهو يدوب في حر مزرعتنا ..  
يتبخّر ويغلي كما تغلي جزيئات الهواء على امتداد البصر في عز القیظ ..  
يختنفي .. يصبح لا شيء ..  
أكثر من بنجالي .. كنا نعبث به ..

غرفة الفئران



## 10

محشورات في مرايل صغيرة بأحجامنا الصغيرة.. ساعات طويلة تمر بنا لا نحرك أذرعنا الملقوفة على بعض ونحن نستمتع في ملل لا ينتهي.. وروائح يجلبها حر شديد لفصلنا المفتوح على ريح سموم تلفحنا وننتهد صعداءها..

لم يكن في فصلنا حتى مروحة.. ولا حتى مكيف بلا وجه مثل “ثاني ط”.. أخبرتنا العريفة وهي تعطينا موعظة تهديدية أنه في العام الفائت كان هناك مكيف، وأن فتاة شقية رشت عليه الماء وانفجر.. وأنهم أخذوها لغرفة الفئران.. وفصلوها بعد ذلك..

كانت العريفة.. رعب الحصاة الذي لا ينتهي من خيالاتنا الصغيرة.. ورقتها المنزوعة من النصف تتربص بكل همسة.. وكل حركة من دون إذنها..

وأبلة نمشة كانت قد عيبتها يدها اليمين وعينها المفتوحة على الدوام وأذنها الملقاة.. باعتبارها أطول من في الفصل.. وأقدرهن على القسمة وأطولهن صوتاً ولساناً..

- واكتبي يار بما اسم أي بنت تتحرك أو تتنفس..

وكأننا كنا بحاجة إلى مزيد من الخوف والإرعاب أكثر من صوت مسطرتها الطويلة وهي تفرقع فوق أكف الكسلانات والمشاغبات وعدوات العريفة.. ومن كتبت أسماؤها من مكررة..

أن يكتب اسمك فهذه مصيبة اليوم .. ووعد بعقاب أليم .. وملاحظة على دفتر المتابعة ..  
ومزيد من الحقد سيتكسد في قلوب صغيرة لا تعرف إلا السواد أو البياض ..  
مرة ضربت أبلة نمشة طالبة وكسرت المسطرة على يدها .. لم تتحرك يدها بعدها ولم  
تحضر أمها حتى لتشتكي .. وهكذا لم أفكر أن أستفزع أمي كي تجد لي حلاً في رعيي  
اليومي .. والبلبل الذي يتسرب لثيابي الداخلية كل مرة يعلو صوتها أو تستل مسطرتها  
وهي تمسك ببطنها الثقيل على وشك الانجاس ..

لا يمكن لأبلة نمشة أن تكون طيبة أو من أهل الجنة .. إنها أول ما استهلت به درسها الأول  
وهي تتحسس بطنها الثقيل أول العام الدراسي القبيح:

- واللي تشاغب أو ما تحل الواجب بنزلها المديرة وبعدين يودونها لغرفة الفئران ..  
قصة غرفة الفئران أطول من سواليف بنات الابتدائي .. وأكثر إرعاباً من هواجس تسكن  
أجسادهن الصغيرة وهي تتراكم وتتقافز في ساحة مدرسة صغيرة ..  
وفي عقلي الصغير كانت هناك قصة طويلة بنيتها حول هذه الغرفة ..  
إن أبلة نمشة وحدها هي من افتتحت هذه الغرفة .. بنتها بكرشها الثقيل .. ثم أحضرت  
الفئران القذرة والجرذان وحشرتها وجعلتها تتقافز فرحة سعيدة في انتظار لحم  
الصغيرات في هذه الغرفة الرمادية ..

وجعلت فيها سلاسل وحبلاً كغرف التعذيب التي تظهر في مسلسلات التلفاز  
التاريخية، وأكاد أقسم إن أبلة نمشة صممت السلاسل لتلائم أيدي الصغيرات  
المنكوشات الشعر ..

كله لحبس التلميذات الحسيسات واللاتي لا يحللن الواجب أو يظهر في شعورهن أثناء  
التفتيش اليومي في الطابور لسبب أو لآخر القمل والنمل .. (كانت تقول لنا إن هناك  
طالبات توجد في رؤوسهن مستعمرات مثل، وكنت أتخيل ذلك وأمنع نفسي من التبول  
خوفاً) ..

ما طير صوابنا ونحن نستمع لها تتحدث بسادية بالغة وتلذذ كبير، وتنسج خيالاً أسود

أقبح مما في عقولنا عن غرفة الفئران:

- وحين يأخذونك إلى غرفة الفئران يدهنون يديك بصمغ الفئران حتى تلتصق بك ..  
وإني لأتذكر كيف كانت ابتسامتها المتلذذة تشق وجهها النحيل ببطء، وهي (تمزمز)  
كلماتها بتشفٍ .. وترمق أصغرنا حجماً وأكثرنا بؤساً (سامية) تشهق وتبكي رعباً  
شديداً ..

ذلك أن سامية (المشاغبة والكسولة في القسمة) كانت أول من سينزل لغرفة الفئران  
الأسبوع القادم ما لم تحسّن مستواها ..

إنها ولسوء حظها حتى لا تمسك المشابك شعرها الخشن الأجدد .. والذي يتطاير بعد  
الحصة الأولى ليصبح منظرها رثاً و(غير مرتب) ..

لم تحصل سامية يوماً ما على شريطة الطالبة المرتبة .. ولم تحصل عليه أي من الرثات  
وذوات الشعر الأجدد والوجوه الحزينة القبيحة ..

لم تحصل عليه يوماً إلا (ربما وشلتها من الدافورات) ذوات الشعور الحريرية .. والمرايل  
المصقولة .. والعلاقات الجيدة مع الأبلوات ..

لا أظن شيئاً يمكنه أن يضاهي رعب منظر كرش أبله نمشة يتمايل خلف الباب، أملس  
قبيحاً وعليه أصابعها النحيلة المنقوشة حناءً، وعودها النحيل وهو يمسك بهذا الحجر  
الكبير المتماسك داخل (جلايية) زرقاء يوحى إلى طفلة (مثلي وقتها) أنها ستختنق ..

أن (شيئها) المتكور الذي يختبئ في ثوبها سيقى طوال الأيام والسنين والدهور، وأن  
غضبها المستمر له معنى، أو على الأقل لم يحدث من اللاشيء ..

إنها محتشدة بكل شيء كرية .. وإنها لن تتخلص من أي شيء كرية ..

في ذلك اليوم لم تعرف سوزان المصرية توحيد المقامات، وحين انحنت لتنظر في دفترها  
الأشهب المتسخ عاجلتها بصفعة في الرأس، ومن بعدها أخرى على الخد، ومن بعدها  
شدّت جديلتها المطاوية المجدعة الشقراء لتنهال على كتفها بمسطرة وغلّ يفوح من ثقل  
بطنها الكرية .. فيما كانت المصرية ترمق صامتة هذا الوجه الغاضب الذي يصفع بتشفٍ

دون تعبيرات .. سوزان المصرية كانت بلا تعبيرات أيضاً لحظتها ..  
 لم تتأوه أو حتى تحاول شد يدها لتخليصها من مسطرة الأبله حتى انتهت ..  
 وحين انتهت الأبله وكان الكل يرمقها خوفاً وذعراً ..  
 فتحت فماً قبيحاً يتحدث عن فصلنا غير المؤدب وعن المشاغبات والكسلانات اللاتي لا  
 يحسنن توحيد المقامات واللاتي (تنتكش) شعورهن ولا تعتدل (أبأتهن) على رقابهن  
 الصغيرة ..

إنه يوم أسخن من التهاب مسطرتها الخشبية على أيدينا وهي تصفنا باتجاه غرفة الفئران  
 قائلة إنها لم تعد تحتملنا أكثر ..

سامية تمزقت بكاءً .. وسوزان كانت تأكل أظافرها بعيون صامته مفتوحة على الآخر  
 ذعراً .. وأكثرنا لم تجرؤن على البكاء ذعراً .. فبعد دقائق ستوضع وفقاً لسيناريو أبله  
 نمشة على أيدينا طبقات من الغراء لتلتصق الفئران بنا قبل أن تأكلنا .. وأما أنا فقد ابتلت  
 ملابس الداخلي ونحن نسير باتجاه الدور السفلي تحت صرخاتها المفزعة ووعيدها  
 المرير ..

بغته توقف كرشها عن التمايل البطيء وافترّ ثغرها المدهون بالروح السحري عن ابتسامه  
 مجاملة عريضة .. حين توقفت أمام المديره وهي تفهقه فخورة بمعلمتها الصارمه:

- (علام تسيل أنوفهن وتشهقن هكذا، إش بتسوين بهم)!

وتجيب أبله نمشة بزهو معلم صارم مكتوم: (هذولي المشاغبات بنزلهم لغرفة الفيران يا  
 أبله نوال...).

ويرتفع عويل الطالبات .. وتبدأ سامية تهذي وقد طار صوابها: (أبله الله يخليكي .. الله  
 يخليكي .. الله يخليكي).

ويشق صوت العويل قهقهات سادية تطلقها المريبتان الفاضلتان .. وذات الكرش تشرح  
 لذات الحدبة .. كيف أن المسطرة أتعبت يدها وأن غرفة الفئران لا بد أن تقوم بعملها ..  
 خيل لي وأنا أسمع شهقات سامية التي كانت تهز جسدها الضئيل كتشنجات عنيفة



ستقسم حجابها الحاجز أو رثيها، وقد كنا تعلمنا للتو تشريح الجهاز التنفسي ..  
وأذكر جيداً كيف كانت عيناها تشخصان في ذعر لا نهائي .. وهي تتخيل أنها تسير  
باتجاه موت على أسنان الفئران ..  
وأخيراً شق ضجيج الممر المملوء بالأجساد الصغيرة رائحة فيء نفاذة تفرّق على أثره  
جمع الصغيرات .. وقد سدّت كل واحدة أنفها وقفزت: سميرة .. سميرة .. يع ..  
يعععع ..  
يمكنني أن أتذكر وجه أبله ممشة الأحمر خوفاً وغضباً .. وكرشها يرتج لإسعاف الصغيرة  
من آخر الفصل .. التي فقدت وعيها ذعراً وبدأت في التقيؤ وارتمت على الممر ..  
يمكنني أن أتذكر أكثر حدبة المديرية وهي تدبّ ببطء لتصرخ على الفراشة بتقزز لتأتي  
وتنظف المكان .. وتأخذ المريضة لغرفة التمريض ..  
أكثر منه جداول المخاط والدموع التي كانت تجري على حدود الصغيرات وأفواههن ..  
ما لن أنساه بالتفصيل هو صوت سامية وعيناها المتسعان ذعراً .. يهتفان وهي تكاد تقفز  
شهيقاً وتشنجاً:  
- (الله يخليكي .. الله يخليكي) ..



لندن

يناير ٢٠٠٩ - ٢

رجل لا يدب..



## 11

والمشكلة أنه وسيم.. ليس تلکم الوسامة الصارخة.. وإنما التي تكفي لتجعلني أحبه  
بألم..  
وأه رجل صالح..  
وما أظفح أن يكون الرجل صالحاً بعض الأحيان..  
حين يستيقظ غدوة.. يبتسم.. يتناول إفطاره.. يطبع قبلة عاجلة ويعكف شماغه فوق  
كتفيه ويمشي..  
تغدو الدقائق بانتظار هذا الذي لا يحب صلبة.. وتكاد تتقاطر من السقف.. تكاد الدقائق  
تظهر في دقات القلب.. والتفاتت العين نحو الباب بانتظاره..  
ونقرات الأصابع فوق جهاز التحكم.. حيث لا يظهر وجه في التلفاز لا يذكرني به..

\*\*\*

لا يعقل أن يكون الحب كذبة كبرى.. من أنا حتى أفند آلاف الأوراق والأبيات والآهات  
التي احترقها مئات الرجال قبل زميني..  
من أنا حتى أقول إن الرجال كلهم.. لا يحبون.. كرجلي الذي لا يحب؟

لأن من عندي لا يحب.. لا يعرف الحب.. ولا يرى حديثي في الحب أكثر من كلام  
 مسلسلات..  
 أحقاً تبلى القيم حين نفرط في الحديث عنها؟  
 نعم.. ربما.. ربما أزرى بالحب تفنن العشاق..  
 ربما جعلنا نكره الحب ازدحامه حولنا في الإذاعات والمجالس والمجلات والجرائد وكل ما  
 يمكنك أن تلتفت إليه أو تقع عينك عليه.. كله حب..  
 ولذلك جعله زوجي أرخص من جريدة.. وأكذب من دعاية.. وأكثر إثارة للضحك من  
 فيلم هندي..

\*\*\*\*

لا هدف واضحاً في حياة زوجي..  
 انشغل بالأسهم فترة.. وثم عاد ليشرف على أعماله الصغيرة..  
 ملل لا ينتهي.. مهما حاولت معه بالخروج مع طفليّ وشغالي.. يظل هناك شيء ناقص  
 لا يريد أن يكمله..  
 - (وين الناس حبيبي؟  
 والله مشغول.. مشغووول..)  
 صديقتي لا تنفك توبخني بأن أكون شكورة.. وأن الكثيرات يتمنين ريع زوجي الذي لا  
 يحب..  
 الذي لا يبخل عليّ إلا بنفسه..  
 أحضرت لي صديقتي لعبة الحب..  
 رومانس تجاري جعلني أهتز ضحكاً حتى قبل أن أفتحها..  
 تعليمات اللعبة: هيئي جوار رومانسياً قبل البدء..  
 أتقصدون الشموع والحركات “النص كم؟“  
 (طب يا الله.. شعللنا الشموع.. وطفينا اللمبات..)

وانتظرنا الحبيب الذي دخل بابتسامة ساخرة وهو يقول: اش مقعدك في هالظلمة؟

\*\*\*\*

لا فائدة من نفخ النار في رماد لم يشتعل أصلاً..  
هو هكذا.. خلقه الله هكذا..

\*\*\*\*

رجل لا يفهم.. همست له مرة وهو يتابع شاشة الأسهم حتى لتكاد عيناه تغادران  
وتتمتجان بالألوان في شاشة حاسوبه:  
حبيبي.. احملني على يديك..  
- ها؟

يرد لسانه - فقط - مائلاً لليمين، أقصد باتجاهي..  
بعد دقائق طويلة كررت فيها طلبي واعتقدت أنه قد ارتحل إلى عالم آخر.. زمجر بفارغ  
صبر:

- (وأشيلك ليه؟ احمدي ربك عندك رجلين!)  
انتهت ليلتنا بأن نمت في غرفة طفلي.. حكيت لهما قصة الأميرة النائمة والأقزام  
السبعة.. ونظرنا إليَّ ببلاهة وضحكتنا.. وضحكت معهما ثم نمنا سوياً..  
وهكذا تبدو الأمور أحسن..

\*\*\*\*

رجل لا يعرف.. كان يتعلل بأنه لا يعرف حين أبكي طويلاً لم أنت لست كالأخرين..  
ولست كأزواج صديقاتي؟  
أهي أنا أم هو أنت؟

يرد بعجل وهو يضرب أزرار الحاسوب باتجاه سهم: (يمكن يكذبون عليك.. ما في رجال

يسوون كذا إلا في الأفلام الهندية!  
ويصمت قليلاً وعيناه تحفران متدى هو امير البورصة: وأنا ما قد قصرت عليك بشيء ..  
والحقيقة .. أنه لم يقصّر عليّ بشيء .. ما ..  
كل شيء أطلبه يتحقق آلياً ببطاقة صرّاف .. من الهدايا .. وحتى القبلات ..

\*\*\*\*

حين انهارت السوق انهار بيتي .. وأصبح شبح زوجي يعبر أبيض اللون من سماعة  
الهاتف وحتى غرفة المكتب ..  
صار كالحا وغير وسيم، واكتشفت فيما بعد أنه استعمل حبوباً تقاوم الكآبة ورمائها في  
الزباله، حيث كادت تأكلها بنتي ..  
سافر قرابة الأسبوع وقلت في خاطري إنه ذهب ليتنحّر كما سمعت من ألسنة النساء ..  
الحمد لله أنه عاد بعد الأسبوع أكثر تجهماً ..  
عاد وهو ليس هو .. وما زال ليس هو .. وأنتظره أن يعود ..

\*\*\*\*

نعم .. يقتل النساء في بلادي المسلسلات والأفلام ..  
ويقتل الرجال في بلادي الأسهم ..

\*\*\*\*

وقتلني أنا رجلٌ لا يحب ..  
أو أنه لا يعرف كيف يحب ..!!



لندن

٣١ أكتوبر ٢٠٠٨ - ١١ - ١

كبسة التفصيل



## 12

كان عمري وقتها لا يتجاوز الحادية عشرة، والحادية عشرة (في زمنها) كانت تعني (حرمة) بدأت على الأقل بلف جلاب على جسدها الصغير .. جسدي لم يكن صغيراً وقتها للحقيقة .. ولكنه كان على كل حال جسداً مضطرباً مغضوباً عليه في البيت وفي المدرسة وفي الشارع .. حتى نظرات فراش المدرسة لجسدي كانت حقودة بغیضة .. ولست أدري ما السبب؟! كانت أكبر مغامرة قمت بها في حياتي .. إي وربّي .. وإني لأتذكر طعمها .. وطعم الغبار في فمي .. طعم ال(خطيئة) بين جدائي وهي تهتز وتطير ركضاً في الطريق .. كان يوماً صيفياً بغیضاً يبتدئ بالحر وروائح الأفواه المستيقظة من النوم .. وأيدي المعلّمت تدفق من بوابة المدرسة ترفع العباءات الفضفاضة المغبرّة عن تنانير كثيية متثائبة، وتكشفن أغطية الوجه عن حواجب معقودة وعيون عليها آثار الليل، وشفاهٍ متبيسة لم تدهن بالروج بعد .. حين قابلت منى بنت جيراننا في الصباح الأجل من الصباح الباكر .. وأنا أتساءل إن كانت قد رأت ما حصل ل(سالي) في حلقة أمس:

- الأنسة مينشن غضبت وكادت تضربها لأنها لم تخبرهم أنها تعرف الفرنسية، لكن أنقذتها الأنسة إيميلي من الضرب .

ولعمري إني كنت أنطقها بخوف ورعب وخجل، ف(سالي) على الأقل كان حجمها صغيراً وهي تضرب، لم تكن بحجم امرأة ببرايم أنوثة خجلة وهي تمد يدها لأبلة أو مديرة لتلسعها كما كنا .

وكانت سالي على الأقل جميلة جداً، ولم يكن لها صفائر غليظة مهملة أشبه بقرون البقر، ولا كان وجهها مبثراً بحبوب حمراء مخجلة لا ترحمها مسطرة ولا تكرمها مديرة..  
ونجلس على رصيف الساحة في ظل المبنى في انتظار طابور ممل، وفي خضم هذه الذكريات حول سالي والمسطرة والضرب هجمت فكرة فجة قبيحة في رأسي:  
- اليوم عندنا حصة خياطة!!

وبطريقة لا تكاد تنكرها تشهق (منى) وهي تلمم الخد الأيسر (وهو الأيسر دائماً): أي والله عندنا، نسيت أجيب أغراض الخياطة!!  
ماذا نفعل الآن؟!!

بدأت كعادة الطفلات تلوح بيدها اليمين في رعب وحسرة: يا ويلنا.. بتكسر أيدينا!  
وخزي هذا التكسير وحده يكفي لأن أتمنى لحظتها أنني لم أخلق، خجل منظرنا وهي تسخر من طولنا وتهاجم أنوثتنا بفظاظتها البشعة!  
- سنذهب إلى البيت ونحضرها!

هتفت في أذنها وهي تهش ذباباً بديئاً يطير حول فمها: ماذا تقولين؟! (من جدك أنتي)؟  
شجعتني وهي تسحب يدي: (ياالله بيوتنا قريبة والله يمدينا قبل الطابور ما أحد يدري عتاً)!!

كان هذا بحد ذاته جرماً لا أتخيلني أفعله.. عندما تدخلين المدرسة فأنت لا تخرجين تحت أي ظرف إلا بعد نهاية الدوام أو محمولة على نعش أو نقالة.. هكذا هو القانون!!!  
- والأبلة المناوبة..

كان كرسي المعلمة المناوبة خالياً ومغريباً بأنها اللحظة.. وهي حقاً اللحظة..

- (ونخلي شناطنا)!!

لم تترك لي فرصة التفكير.. فقد سحبتني وأخرجت رأسها ذا القرنين والشريطتين  
وخطت خطوطها، وخطوت.. من بعدها طبعاً..

لعلك لا تدرك شعور تلك اللحظة.. ولأن اللغة ربما لم تبدع كلمات مناسبة لشعور  
كذلك فإني لا أتصدى لهذه المهمة..

وجدتني وإياها نظير.. نظير.. كل شيء فينا كان يطير..

من جدائلنا الطويلة.. من شرائطنا القبيحة.. أطراف (مرايلنا) الفضفاضة الرثة المصممة  
كثياب حمل..

كنا نركض بعنف.. عنف بلا حدود.. أكاد أتذكر جيداً ألم كليتي ووسط بطني..

واندفاع الهواء في رئتي الجافتين.. وطعم الغبار في فمي ووخزه على ساقي.. وهما  
تتكشفان ركضاً.. ركضاً..

البنات يتهافتن وقتها على المدرسة.. وكنا نتهافت كفراشتي ضوء خائفتين خائفتين في  
مريولين رماديين، باتجاه منزلينا..

يرفع عمال البناء رؤوسهم مشدوهين لركضنا.. يصغر العالم ويركض معي.. يركض  
العالم في عقلي.. كان يركض..

وعيناى تزوغان خوفاً.. ركضاً.. تعباً.. وترقباً للزمن وهو ينظر إلينا مشدوهاً أو ربما

ياعجاب أو ربما باستغراب المهم أن كل العالم كان مشدوهاً وهو يرانا نظير.. حتى اقتربنا  
من باب منزلنا ودفعت الباب الحديدي لأجده موارباً ودخلت..

وبخفة سحبت كيس الخياطة وركضت للخارج حيث لحقني صراخ أمي ودعاؤها

الساخن المرير عما فعلت.. وما الذي أتى بي؟! وكيف؟!

(نسيت أغراض التفصيل بروح قبل يسكرون باب المدرسة)!

خرجت وأنا أرى (منى) تتسلل من باب منزلهم.. ترمقني بنظرة فيها معنى لا أعرفه..

لكنني أدركته على كل حال وانطلقنا نركض تارة أخرى..  
 لست أدري لحظتها كيف أحسست بأني أعتى مجرم فوق الأرض.. ولست أنسى كيف  
 أنني كنت فخورة بأني كنت كذلك.. على الأقل لحظتها..  
 طعم أن تكون خاطئاً دون أن يراك أحد.. أو دون أن يضربك أحد أو يسحب شعرك..  
 طعم لا نهائي من اللذة..

ما يمنعنا من الخطأ هو الخوف.. وحين تهزم الخوف لا نحس بطعم الخطايا..  
 وأجمل لحظة يمكنك فيها أن تهزم الخوف هي لحظة أن تكون مستضعفاً.. ضعيفاً..  
 أنثى.. في الحادية عشرة من عمرك.. في صباح يوم قاتظ.. وقد نسيت أدوات لمادة  
 يدرّسها كائن مخلوق من القبح والإرهاب والسادية اسمه معلمة التفصيل..  
 رمقنا فرّاش المدرسة وهو يزفر بخيزرانتته، بغيظ مكبوت، بحقد عميق، بشيء في عيون  
 الرجال لم نعرفه إلا حين كبرنا.. ونحن نخطو خطوة أخرى كاد يصحبها شيء من البلبل  
 في ملابسنا الداخلية..

المعلمة المناوبة ترمقنا باستغراب وقد دخلنا من دون حقائب.. بادلناها نظرتها ووجدنا  
 (شناطنا) ترقد في وداعة تنتظرنا كقطط سوداء تقاسمنا ألم الطفولة.. ألم الأنوثة.. ألم  
 مدرسة بنات في الرياض.

لم نبتسم.. لم نضحك.. لم نفرح.. لم نتمسح حتى آثار الغبار من عيوننا أو آثار جفاف  
 أفواهنا من أطراف شفاهنا.. مكثنا صامتتين ونحن نتجه للساحة ونجلس..  
 جاءنا صباح المراقبة وهي تمسح الطالبات بمسطرتها باتجاه الساحة الداخلية، تمأشينا عيون  
 بعضنا واتجهنا للطابور والجرس يقرع.. وقد حضرنا قبله بخمس دقائق أو أكثر..  
 تبادلنا نظرات فيها معنى لا نعرفه..

الرياض

يوليو - ٢٠٠٩

زرعة





## 13

(حقيقية)

لا شيء يضاهي ملل دقائق الانتظار في الساحة الخلفية، حيث تتلملم المعلمة المناوبة وهي تهشنا لنتجمع باتجاه البوابة. الهواء في لفحات كتلك يتراقص أمام عينيك كما لو أنه يغلي ويتفافز فوق إبريق شاي.

بالنسبة لزرعة كان الأمر أكثر من عادي، إذ لديها اليوم بأكمله لتنتظر السيارة التي تأخذها، حيث تسكن في الفيصلية، كانت تقرأ القرآن الكريم في الحقيقة، وفي حقيبتها كتاب عن أوصاف أهل الجنة كما أخبرني، ولأني أتصوّر جلدها الأسود المصقول متعوداً على قساوة الشمس وطعم العرق، فلم يشكل الهواء السمومي لها أكثر من تكيف جلودنا المتعرقة الملفوفة بالمرابيل الرمادية.

تعودت أن تجلس ورجلها فوق الأخرى على كراسي الساحة الخارجية، وهذا ليس افتعالاً للأناقة، إنها متديّنة وبعيدة كل البعد عن حركات البنات الأنيقات اللاتي تقصصن شعورهن كالأولاد.. ويرفعن أصواتهن فوق أصوات المعلمات. كما أنها ليست بحاجة إلى ما يعبر عنها أكثر من ابتسامتها التي أعرف كم تصطف خلفها تنهيدات كثيرة تقاومها في عمرها الذي بلغ السادسة عشرة.

زرعة بنت تعيش في الفيصلية، وليس في الملز مثلي، ولذلك تشكل السادسة عشرة فارقاً كبيراً جداً بين عالمينا المختلفين. عمري أنا بلغ السادسة عشرة ومازالت أمي تراني صغيرة على أن تكون لي غرفة خاصة، بينما بلغ عمر زرعة السادسة عشرة ولم تتزوج أو تخطب بعد، وهذا وضع خطير كما تراه وتشتكيه لي بدموعها؛ لأنها فوق ذلك فأما مطلقة وتعيش في بيت أبيها مع زوجة وأخوة أحدهم متزوج من امرأة لا تصلي، والوضع في بيتهم جداً مزعج لأنهم يكرهون تديّنها ونصيحتها المتواصلة لهم بالصلاة وترك المنكرات.

طالما كانت تبلع ألمها خلف ضحكات طفولية مبهّرة بالمحلب ودهن العود الرخيص ونور الإيمان، كنت حين أراها يخيل لي أن السعادة تحوّلت إلى كائن هو هي، بلونها الأسود وشعرها (الأكرت المعقّص) بصعوبة تجعله محيّراً الإبهار، مهما ظهر لنا أنه غير جميل.. كنا نحبها لأنها سعيدة، أنا شخصياً كنت أحبها لأنها سعيدة، لأنها لا تعرف إلا الضحك والابتسام رغم كل تأوه. رغم الاحتقار الذي تكنّه لها نظرات الفتيات الجميلات، رغم شفقة المعلمات وحيرتهن بين خفة ظلّها الحقيقية وشقاوتها، وبين براءتها وتديّنها غير المفتعل.

كانت سعيدة رغم أنها تعرف أنها أقل في عيون الكل، رغم أنها سفلية في عقل الكل المترفع المصعّر الجبين..

المهم أنه أتى يوم غير ذلك كلّهُ، وجعل الابتسامة اللذيذة التي لا تموت من وجهها البريء تحل محلّها دمعة زجاجية جبّارة، لا لم تكن زجاجية والحق يقال، بل كانت حمراء بلون عينيها المحققتين بالدم وبلون ألمها الذي نضج وأصبح حقداً، حتى زرعة يمكنها أن تحقد حين يستلزم الأمر.. وما حدث كان يستلزم حقداً رهيباً

- قذفوني في شرفي!

قالتها وزفرت دمعة حمراء أخرى، كانت ترجوني لأستمع.. وكنت في الحقيقة أهدق في وجهها أحاول استيعاب أنها كانت تبكي بعين حمراء، وأن هناك ألماً قد تجاوز زرعة

ولم تقدر على حبسه هذه المرة، فتأوهت آهة طويلة بلون الدم والزيد يتجمع على شفيتها وهي تمسحه:

- المديرية نادتنى اليوم .. أوقفوني عند الإدارة يوماً كاملاً .. (يبغوا أبويه يجي عشان يقول لهم مين اللي يجيبني كل يوم)!!

كنت أعرف أن من يوصلها من وإلى الفيصلية كان (ابن جيران) ما، تدفع له نقوداً قليلة ليأتي بجمس أحمر مهترئ وتركب هي في المرتبة بعد الخلفية (إمعاناً في العفة والتقوى)، فولدها لا يملك سيارة، وأخوها الفاجر لا يصلي، وحافلة مدرسة المزر العريقة لا تدخل حي الفيصلية المنسي المترع بالخطايا ..

تابعت وهي تسابق الشهقات كي لا يخنقها الحنق والقهر:

(ولد جيراننا هو اللي كان يجيبنا أنا والبنات في المتوسط، لما كلهم سابوا المدرسة أنا ظليت لحالي .. إيش أسوي ما عنده محرم)!!

كنت أدير المسألة في عقلي، وأحسب المسافة بين عالمي وعالمها .. وأفيس ما يمكن أن أفعل لو قالت لي المديرية ما قالته لها .. أعرف فوق ذلك أنها ليست فقط ترتدي قفازين أسودين وشراباً سميكاً .. ولكنها زرعة وكفى .

إنها تحمل كتاب أو صاف اللجنة باستمرار .. ولا تمل من إعادة قراءته، كما هي تختم القرآن الكريم كل شهر ..

- وماذا قال أبوك للمديرة؟ وماذا سيفعلون بك؟

شهقت وهي تتطلع في عيني برجاء ساخن:

- (أبوي داري عن نفسه ولا عني عشان يكلم المديرية؟ وأمي تقول لي التجوزي وبطلتي مدرسة .. كفاية أخذتي كفاءة).

- إذن فهم لا يريدونك أن تدخل الجامعة؟

لحظتها خيل لي أن دمعها تقفز باتجاهي تصفعني موبخة حاقدة:

(جامعة إيش ولا إيش .. أنا في ورطتي الحين مين يوديني ويجيبني؟ إيش بيسوا فيته؟

قلت لهم أبويا داري أنني أجي مع ولد الجيران وراضي.. قالت لي المديرية حرام خلوة!! وقتها تذكّرت كلام المديرية وهي تصرخ في وجهي حين كان شقيقي يتأخر في الحضور لاستلامي من المدرسة:

- ما دام ولي أمرك وقع موافقة إنك تدرسين هو يتكفل يوديك ويجيبك حسب الدوام، وإلا اركبي (الباص) أو لا تحضري للمدرسة!

و(الباص) لم يكن يذهب لحي الفيصلية، والفيصلية وقتها لم يكن فيها مدرسة، قالت لها المديرية بكل بساطة:

- انقلي مدرسة ثانية!

والأمور بسيطة جداً عند الناس الذين لا يقاسون، الناس الذين نتعوذ بالله من الجن الأزرق الذي يسكنهم، وتحمد الله على نعمة الإسلام والأمن والأمان والراتب العالي وخدمة الوطن أربعين سنة والحمل كل تسعة أشهر وإجازة الأمومة.

كانت تتجمع هذه الأشياء في فمي (وربما في فمها) ثم أبصقتها تقززاً وأنا أتذكر كم هو سهل أن تسخر من ألم من لا يملك إلا أن يتألم.

من الغد لم تحضر زرعة، وبعده لم تحضر.. ثم حضرت وأخبرتني أن المديرية هددها لو ركبت السيارة مع ابن الجيران أنها ستبلغ الهيئة وتفصلها من المدرسة تماماً:

- كانت تتحدث كما لو كنت قد ارتكبت شيئاً حراماً، كما لو كنت قد ضاجعته أمام الناس، حسبنا الله ونعم الوكيل!

وفتحت لها محضراً ورفعته كما هددها للرئاسة، وحين يصل الأمر إلى الرئاسة فإن البائسين مثل زرعة لا يملكون إلا الانسحاب.

أذكر أنها قاتلت حتى اختبرت الاختبار النهائي في الصف الأول الثانوي، وأنها

صارت تأتي مع فتاة من الفيصلية وأخيها، وأنها دعت ربّها في ليلة سوداء حافلة

بظلم الفقر ودخان شيشة الوالد وصراخ الأخ وزوجته الفاجرة، فأتى من الغد عريس

متدين ليتشلها من بركة الخوف والتوجّس والقذف الذي ملأتها به المديرية والمراقبات

والمدرّسات المناوبات والفراش، وكل ذلك العالم السفلي القبيح الذي ودعته.. ونقش الحنّاء في يديها يشع بالفرحة والانفراج..

( طز فيهم وفي شهادتهم.. هي راح توكلني عيش يعني)!!؟

كانت تقولها وهي تؤمئ بحقيبتها بلا مبالاة.. وتنظر للسماء وفي فمها ابتسامة رطبة ورائحة حناء.

بالنسبة لي لم أفرح كثيراً وأنا أعرف أنها ستترك المدرسة وتتزوج، وتحقق حلماً بالنسبة لها كان كل شيء.

رجل تشبث به كي لا تغرق في وحل كبير باتساع الآهات التي تسكن أحياء الفقراء والمنبوذين، ومن كتب عليهم المجتمع لعنة لا تشفيها كل التعاويذ..

كنت أتمنى لو رافقتني زرة بإيمانها وابتسامتها إلى الجامعة، لو درست و عملت وأصبحت شيئاً أكبر من أم متربّعة.. كما كانت تسخر بنفسها فيما بعد..

لكنني أعرف ضريبة أن يكبر كائن بئس ويتنفض في مناطق منبوذة ملعونة في الرياض.. وتأبى الحياة في كل مرة إلا أن تتوحّش وتبرز مخالب وزفيراً كريهاً يطرد الأشياء الجميلة..

يطرد زرة، وأوصاف الجنة، والحوريات، وحشيش الزعفران، ومجامر الألوّة، والمحلب، والحناء، وما شابهها.. ويترك فراغاً لا تملؤه إلا الذكريات التي بلون دموع حمراء تزف في حفلة استضعاف..



الرياض

فبراير - ٢٠٠٩

عساف..





## 14

المنظر يبدو كثيباً.. والبيت يتشع بسواد لا نهائي.. وأيام العزاء لا بد لها أن تكون كذلك، موحشة، ثقيلة، زائدة وصخرية، ولا يسمح فيها حتى بالابتسام..

كان عساف يراقب من خلف الباب ما تعنيه فكرة أن أخته الكبرى قد اختفت من الوجود.. أنها قد ذهبت للجنة كما يردد الكبار..

لم يكن يفهم معنى الدمع والعيول الذي تطلقه النساء في مجلس الحریم الذي يغص بأفواج تدخل وتتبدل وتغادر الكراسي.. وتحلف على بعضها البعض بالجلوس.. هو لا يفهم شيئاً من هذه الحركة السوداء الدائبة..

وأخيراً وجد عساف نفسه يندمج في هذا الجو الأسود.. ويبكي بصوت رجولي صاخب يحتج على منظر العباءات المتكومة.. وحفلة الحزن في الدور الأرضي..

لم يفهم أكثر لم تنهره أخته الصغرى ليغيب ويصعد للغرفة.. لا يفهم أكثر لم تشهق النساء بالمفاجأة والنكير وتمتد أيديهن الطويلة لجذب أطراف الشيل والعباءات حين يرين نظراته القلقة البلهاء من خلف الباب؟

أخيراً جذبته أخوه الأكبر لمجلس الرجال.. جلس عشر دقائق ومن ثم أخذته لغرفته الأبدية التي قبع فيها محبوساً مغيباً طيلة سنين..

\*\*\*\*

حين دق جدران غرفته بعنف وبكى طويلاً (جوعاً وعطشاً ووحدة) ليفتحوا له قفل الباب وهو يصرخ باسم حصّة، لم يكن يعرف أنه سيكون الخميس الوحيد منذ سنوات طويلة تلك التي ينزل فيها ويبحث عنها ثم لا يجدها..

لم يجدها في أركان المنزل الجديدة على ذاكرته كل مرة، في المطبخ الذي لا يتذكر معالمة، في الحوش وهو يصرخ مطالباً بها وسط عويل أخواته ونهر إخوته وهم يجرونه كالخروف للغرفة مرة أخرى..

- (ما نبيه يفشلنا قدام الناس.. خذوه فوق وصكوا عليه بس لابو هالحالة!

- طيب وصراخه وطقه على الباب، وش يقولون عنا إذا سمعوا هالصجة)؟

إنه يومها، يوم مجيئها الذي لم ينقطع أسبوعاً واحداً منذ ماتت الأم منذ إحدى عشرة سنة، وأصبح يوماً يودعونها فيه ويتشحون بالسواد والملابس الكئيبة والدموع والدعوات.. لأي شيء يحصل كل هذا وكيف؟

إنها أسئلة ربما ليست بحجم عقله الصغير الذي لم يعرف من الدنيا الكثير، جدران الغرفة البيضاء الكريهة المكررة بعدد ثواني حياته.. أغلفة المجلات المصورة وقصص الأطفال التي لا تختلف عن بعضها..

التلفاز الصغير المعلق في السقف بفيديو يعرض أشرطة أطفال لم تتغير منذ سنين.. وحده وجه الأخت الطيبة الحنون فقط هو ما كان جديداً وأخضر كل مرة، يداها اللتان تطعمان بابتسامة ورحمة لا حدود لها، وكلماتها القصيرة وصمتها الباسم.. هي الشيء الخاص الذي ينتظره أيام الأسبوع، يبقى بانتظاره ويحيا ليلاقيه..

وهاهو الآن يبدو كثيراً هذا الشيء الوحيد، يهرب منه إلى حيث الفردوس المعشب الأخضر، ويتركه في بقعته الأرضية الجافة المربعة البيضاء..

\*\*\*\*

لا يتذكر تحديداً متى قرر إخوته وأخواته أن يحبسوه في غرفة علوية كي لا يكسر ولا يؤدي بعد وفاة أمه، يتذكر فقط وجوه المرضين الفلبينيين وهي تحقنه بكميات من الأدوية تجعله ينام طويلاً، ومن ثم يصحو وفي فمه مرارة طعم كريبه وجفاف، ودوار، وفي معدته ألم لا يفهمه؛ فيبكي بصوته الرجولي الخشن الذي نما وتطور أكثر مما تطور عقله الصعب..

يتذكر وجوهاً مشعرة لشيوخ ينفثون ويضربون رأسه بعض الأحيان فيذعر ويحاول الهرب وهو لا يعرف لأي شيء يُضرب.. ويخاطبونه بضمير الأنثى ويطلبون منه أن يخرج، تكتم مثل هذه الذكريات الموحشة أنفاسه فيرفع صوتاً خشناً مزعجاً يبكاء يستغيث انفراجاً..

يتلفت الإخوة الضجرون دائماً، ثم يلتقط أحدهم يده ليأخذه إلى الغرفة مرة أخرى وهو يبسم ويتعوذ وينفث خائفاً من شيطانة تختبئ خلف هذه العيون البلهاء القلقة، وتطلق أصواتاً مفعمة بالشهوة والرغبات.

الشيطانة المسكينة لم تغادر جسده بعد، ورغم ذلك فإن عقله الصغير كان يستوعب كم هو ثقيل وبارد وطويل وضخم الجثة بحضرة الإخوة والأخوات، خصوصاً بعدما بدأت لحيته تغزو وجهه وتحكه وتغرز أطرافها المدبية في عنقه حين تطول كل أسبوع، وحين يتضايق منها ويحاول نزعها أو حكها توجعه أكثر.. ولا يدري كيف يتخلص من كل ذلك، ولكنه يرتاح جداً ويبدو مبتهجاً حين تحلقها حصاة وتغسل رأسه الدهني وتجعله يحس ببرودة الحياة ولذتها وهي تتحدث..

عساف لم يعد يرى ذلك كله ولم يعد يفهم لم لا يراه بعد، ولا تتركه الأيام يفهم، ولا وقت عند أحد من إخوته أو أخواته لأن يجعله يفهم..

\*\*\*

حين غادرت أمه إلى الجنة قبل سنين قبع في الغرفة يومين من أيام العزاء، يبكي ويتصور ويقرع الباب إلى أن ضجر أحد الإخوة وهرع للدور الفوقي ليهجم عليه بالعقال تعبيراً

عن الحزن بفقد الفقيده.. الذي لا ينقصه صراخ الجنّة العاشقة المشتبهة وتلمّظها الذي لا ينقضي..

حتى الشغالة حين أرادت إطعامه ورقت لعويله منعت لأنها يخاف عليها منه، أو عليه منها..

أخته الصغرى ترفض مجرد الاقتراب من غرفته، والآخرين يكرههم ويبدأ في الصراخ والذعر حين يراهم ويقولون إنها الجنية تنفر من وجوه الرجال الإنس وتخشى قراءتهم..

بقي هكذا يومين حتى فتحو له الباب وقد استفرغ العويل والخوف قواه..

وجدوه وقد اتسخت به الغرفة واصطبغ لون جدرانها البيض بلون فضلاته ورائحتها في يديه ودموعه الجارية تطلب طعاماً وتطلب أمّاً.. بقيت الغرفة هكذا رغم كل ما فعلته حصة والشغالة لتنظيفها فيما بعد وهي تهمس لنفسها:

- (يا الله لا توأخذنا ولا تسخط علينا.. يا ربي لا تولينا من لا يرحمنا)..

أو كلوا به شغالة المنزل ومن ثم منعوها خوفاً من أن تخاطب شيطانه أو تستغل رجولته المتطفلة على عقل أبله، وجاؤوا فيما بعد بسائق ليغسله وينهره ويلقمه كالبطة على عجل ويغلق باب الغرفة عليه ويأمره أن يشاهد أفلام الكرتون مراراً وتكراراً..

وحين كان يبكي أو يصرخ احتجاجاً - كعادته - كان السائق ينهره بشدة وأحياناً يضربه..

في وسط هذا الزحام الجحيمي الناهر الأمر تبرز حصة كفجر أسبوعي.. تهرع إليه ساعته البيولوجية بلا وعي فيستيقظ بشوشاً وضحكة صباحية تتفاخر فوق وجهه البريء، يظل يضرب الباب ويهتف ببلاهة فرحة:

- حصة.. حصة.. حصة..

إلى ما شاء الله وإلى أن يدور مفتاح الغرفة من الخارج ويظهر وجهها الخلودى المتشكّل كقطعة قمر على وجه الاكتمال، ببشور وكلف تشبه ذلك العالق في وجه القمر.. ورغم أنه

لم ير القمر إلا لما حين ترافقه في ليالي الصيف إلى سطح المنزل، إلا أنه لا يكف على الحملقة في وجهها والحملقة فيه مرة أخرى وشيء في قلبه الأبله يقول إنها واحد في اثنين، يتشابهان ويبعثان البهجة ويشعان شيئاً أبيض مشوباً برمادي جميل حزين .. وإلى قبل موتها الفجائي في الحادث، كانت تحاول أن تنطق لسانه المعوج بالآيات، وتمسك يده الكبيرة بالقلم لتخط عشوائيات تنتهي بفرح صارخ، تجعله يصلّي جوارها وأخواتها يحذرنها مما يمكن أن يفعله الـ(بسم الله الرحمن الرحيم) داخله، وإخوتها يبدوون خوفاً صريحاً من حجمه الضخم وبلاطته على سلامتها، وأحياناً يتهامسون بينهم أنها قد صادقت جنّة عساف وصالحتها، وسيناريوهات طويلة عاشتها سنين طوال وهي تدلق عليه من الحب الذي وهبها إياه نور الله في قلبها، ولم يكن ثمة عطشان يتلقى هذه النفحات سوى شقيقها ..

حين مر الأسبوعان والثلاثة والأربعة أشهر بعد وفاتها وخواء الغرفة يزداد والفراغ يتمدد ويصبح أكثر إرعاباً، أصبح صياح عساف لا يطاق، وطرق الجيران الباب خوفاً من أن يكون الولد مريضاً وبحاجة إلى مستشفى .  
قرر الأخ الكبير تنظيف البيت من عساف والذكريات المغبرة في غرف السطوح المنسية الحارة .. أمر الشغالات أن تجهزن الولد لرحلة نهائية إلى دار نسيان اجتماعي في حافة الرياض ..

وحين حان وقت الرحيل كان تدمّره أوجع، وصياحه الرجولي باسم فقيدته يبدو كصياح خروف يساق إلى الموت وهم ينظرون ..

راقب الجيران الإخوة الثلاثة يتعاونون في رفع الكائن الأكبر منهم حجماً إلى المرتبة الخلفية من السيارة، ذرفت دموعهم ونصحهم أبو الجيران بأن يكونوا ألين وألطف .. وأن الله يراقب ويمهل ولا يهمل ..

تستمر استعداداتهم وتهديداتهم لشيطانة عساف وهي ترفس وتغطي وجهاً يسيل بالذعر والدمع والذهول من حجم الغدر والحقد المقذوف من عيون وألسنة الإخوة على عالم

الجن الدخلاء .

والى أن استيقظ من حجم جرعات مخدر كبيرة حقنت فيه، كان وجه حصة الخلودى  
بابتسامة حزينة رمادية فيها كلف تطل عليه من شق السماء الكحلية .. تنحني عليه  
وتقترب حتى ليكاد يلمسها ويتشبث بها حتى لا تذهب لأي مكان بعيد عن المنزل الكالح  
الذي لم يره بعد اليوم ..

يصبح في الدار وحيداً يترقب الليل من نافذة صغيرة .. يظهر منها وجه حصة جامداً  
بابتسامة مائلة ثابتة ..

تنثر نوراً أبيض حزيناً يتغلغل في أرجاء عقله الصغير ليطير ..  
يطير إليها، حيث لا شياطين ولا وجوه كالحة .. ولا شيء إلا بياض باتساع الزمان ..  
كل الزمان ..

## الفهرس

٥	أوجاع الدمى
٧	القواطي..
١٣	خشير العقل..
١٩	الصقرة..
٣٥	نفيدكم علماً!
٤٣	أوجاع الدمى..
٥١	القييحات!
٦٧	من خطايا الأولين
٧٥	السرطان
٨٥	البنغالي..
٩٣	غرفة الفئران
١٠١	رجل لا يحب..
١٠٧	كيسة التفصيل
١١٣	زرعة
١٢١	عسّاف..

